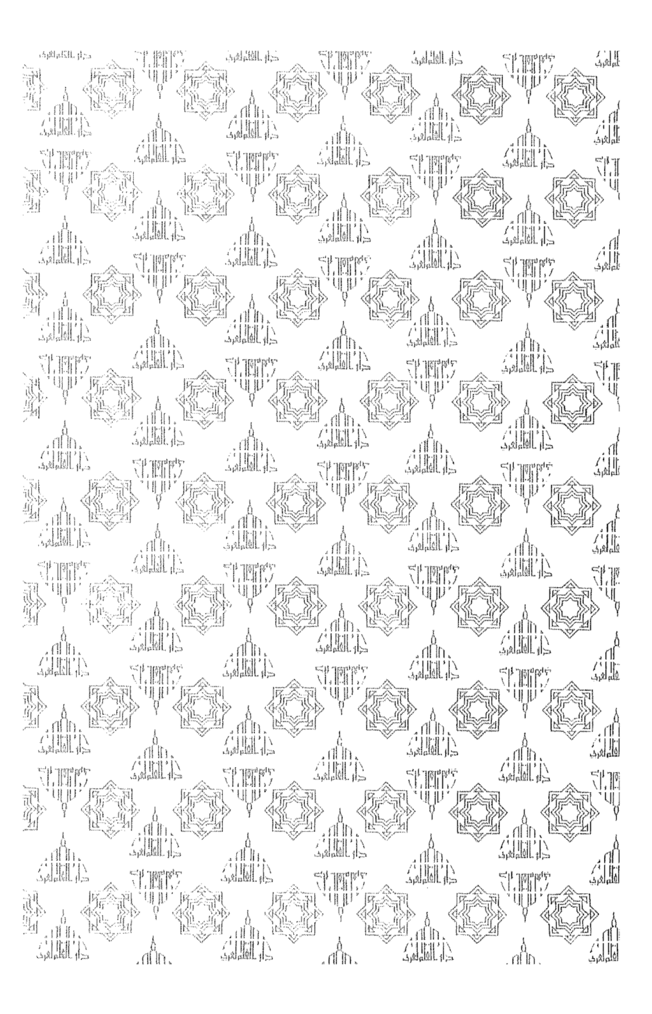
معارك عربية إسلامية خالدة

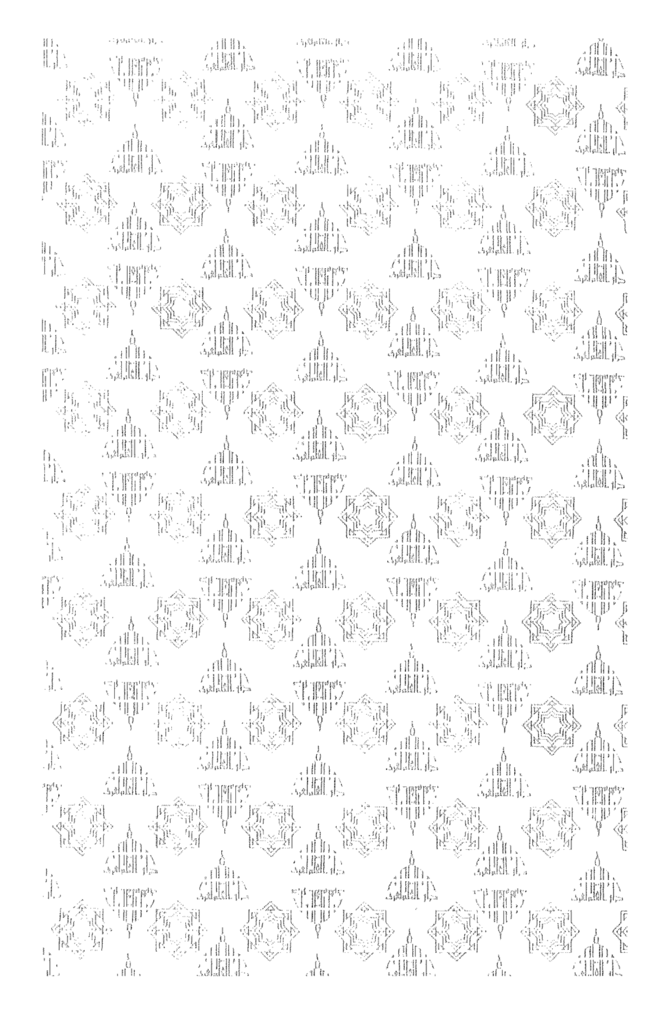
٧ - معركة اليرموك

٨ - معركة الجسر



دار القلم العربي


دار القلم العربي



معارك عربيّة خالدة
٧

مَعْرَكَةُ اليَرْمُوك

إعـــداد
عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 - 1420 هـ 2000 م

عنوان الدار :

سورية ـ حلب ـ خلف الفندق السياحي

ص.ب :78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com



معركة اليرموك

موقعها ـــ زمانها ـــ أسبابها ـــ أحداثها ـــ نتائجها

أولاً : موقعها :

في أرضِ اليرموكِ من بلادِ الشام .

وتقع اليوم بين الحدود السورية والأردنية تقريباً .

ثانياً : زمانُها :

اختلف علماءُ التاريخِ الإسلامي في تحديدِ سـنةِ وقـوعِ معركةِ اليرموكِ ، فقال سيفُ بنُ عمرَ ، وابنُ جريرٍ الطـبريُّ : كانت معركةُ اليرموكِ في السنةِ الثالثة عشرة للهجرةِ قبل فتحِ دمشق .

وقال ابنُ عساكر ، والكلبيُّ : كانت يومَ الاثنين لخمس مضين من رجب سنة خمسَ عشرةَ بعد فتحِ دمشقَ ، قال ابنُ عساكر : وهذا هو المحفوظُ ، وما قاله سيفٌ من أنها قبلَ فتحِ دمشقَ سنةَ ثلاث عشرةَ فلم يتابعْ عليه [1] والتحقيق أنها كانتْ سنةَ ثلاثَ عشرةَ وقبل فتحِ دمشقَ لأمورٍ:

أولاً : كون اليرموكِ من الناحية الجغرافية قبلَ دمشقَ بالنسبة للقادم من المدينة المنورة ، ولا شكَّ أن الجيوشَ الإسلاميةَ قَدِمتْ من المدينةِ ، واتجهتْ شمالاً إلى الشام فمرَّتْ أولاً باليرموكِ ثم تابعتْ سيرها بعد قتالٍ مريرٍ مع الرومِ متجهةً نحو دمشقَ ، فكان الحصار والقتالُ ، ثمَّ الفتحُ ، وليس من المعقولِ إن تذهبَ الجيوشُ الإسلامية إلى دمشقَ أولاً فتفتحها ثم تعود إلى اليرموك ، فلو ذهبت إلى دمشق أولاً لكان طريقُها إما من جهةِ العراقِ ،وإما من جهةِ فلسطين ،فلو كان ذلك للقيت مقاومةً عنيفةً من الرومِ الذين يحمون هذين الطريقين

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير .

حمايةً شديدةً خاصـــةً وأن جنودهـــم مزروعـــون زرعـــاً ، وموجودون بأعدادٍ هائلةٍ فيـــهما ، وليـــس مـــن الســـهولةِ اختراقُهما.

ثانياً : أن معركة اليرموك كـــانت في حيـــاةِ أبي بكـــرٍ الصديقِ ﷺ ، وهو الذي أصدرَ أوامرهُ لخالدِ بنِ الوليدِ ﷺ أن يغادرَ أرضَ العراق ويتجه إلى الشام ليكون ردءاً لمن فيها من القادة والأمراءِ المسلمين والدليل على ذلك أن وفاةَ أبي بكـــرٍ الصديق ﷺ كانت أثناء المعركة ، وأن نعيه جاء إلى المســـلمين وهم يقاتلون في اليرمـــوك ، كما أن كتـــاب الخليفة الجديـــد عمر ﷺ الذي يتضمن عزل خالد عن قيادة الجيـــش جـــاء والمسلمون يقاتلون في اليرموك أيضا كمـــا ســـيأتي بيانـــه في موضعه إن شاء الله تعالى .

ثالثا : المعروف أن مدة خلافة أبي بكر الصديق ﷺ دامت سنتين وثلاثة أشهر ، فقد توفي ﷺ يوم الاثنين لثمان بقين مـــن جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة بعد مرض دام خمسة عشـــر يوما، وهذا يعني أن جميع هذه الأحداث كانت قبل فتح مدينة

دمشقَ، الأمرُ الذي يجعلنا نقطعُ بأن معركةَ اليرموك كـــانت سنةَ ثلاثَ عشرةَ من هجرةِ النبي ﷺ .

رابعاً : أن الخليفةَ الأول أبا بكرٍ الصديقَ ﷺ لم يشهدْ فتحَ دمشقَ لأن وفاتهُ كانت قبل ذلك ، والمعروفُ أنها فُتحـــتْ في خلافةِ عمرَ بنِ الخطاب ﷺ ، ولعلّ جميعَ هذه الأدلة تشـيرُ إلى معركةَ اليرموكِ وقَعتْ قبل فتح دمشق ، بل وفي السنةِ الثالثـةَ عشرة ... والله أعلم .

ثالثاً : أسبابها :

لمعركةِ اليرموكِ عدةُ أسبابٍ نوجزها في الصفحاتِ القليلة التاليةِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى ، وذلك بالعودة أولاً إلى حياةِ الرسولِ العربي محمد ﷺ ، وبالتحديد إلى السنةِ الخامسةِ للهجرةِ حيث كانت أحداثُ معركةِ الأحزابِ (الخندق) تلـــك المعركـــةِ الخالدةِ التي خَلّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذكراها في كتابهِ العزيز بقولِـــهِ تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا اذكـــروا نعمـــةَ الله عليكـــم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكـان الله

بما تعملون بصيراً. إذ جاءوكم مِنْ فوقكم ومنْ أسفل منكم وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتليَ المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً ﴾[1] .

إنه تصويرٌ رائعٌ للموقفِ برُمّته ، وتعبيرٌ بليغٌ لحالةِ الخوفِ والكربِ والضيقِ التي أصابتِ المسلمين حين فوجئوا بهذا الكمّ الهائلِ من الأحزاب.

في هذه الظروف القاسية ، واللحظاتِ الحرجةِ ، والمواقف الرهيبةِ ، والحالةِ النفسيةِ الصعبةِ لدى المسلمين جاء سلمانُ الفارسيُّ ﷺ فاقترح على رسولِ الله ﷺ اقتراحاً يخرجُ المسلمين ممّاهُمْ فيه من ابتلاءٍ واختبارٍ وقسوةٍ وتمحيصٍ فقال : يارسولَ الله، إنّا كنّا بفارسَ إذا حوصِرْنا حفرنا خندقاً يمنعُ من وصول العدوّ ، فاقتنع النبيُّ ﷺ بالفكرةِ ، وأُعجبَ بها ، وأمر على الفورِ بحفرِ الخندقِ ، فاستجاب المسلمون لهذا الأمرِ وانطلقوا بكلِ رغبةٍ وصدقٍ وإخلاصٍ لتنفيذهِ .

(١) الآيات ٩ ــ ١١ من سورة الأحزاب .

وبينما هم يحفرون إذ اعترضتهم صخرةٌ عظيمةٌ حالت بينهم وبين الحفرِ ، فذهب بعضهم يشكو ذلك إلى رسولِ الله ﷺ ، فقام وأخذ المعولَ فرفعه وتلا قولَ الله تعالى: ﴿وتَمَّتْ كلمةُ ربكَ صدقاً وعدلاً لا مبدلَ لكلماتهِ وهو السميعُ العليمُ﴾[1] ثم أهوى بالمعولِ فتحطم ثلث الحجرِ ، وبرقَ برقةً شديدةً أذهلتِ المسلمين ، فقال النبيُّ ﷺ : الله أكبرُ ، أُعطيتُ مفاتيحَ الشامِ واللهِ إني لأرى قصورَها الحمراءَ الآنَ من مكاني هذا .

ثمَّ ضربَ ضربةً أخرى وتلا نفسَ الآيةِ ، وأهوى بالمعولِ فتحطمَ الثلثُ الآخرُ وقال : اللهُ أكبرُ ، أُعطيتُ مفاتيحَ فارسَ، واللهِ إني لأرى قصرَ المدائنِ الأبيضَ الآن من مكاني هذا .

ثم ضرب ضربةً ثالثةً وتلا نفسَ الآيةِ ، وأهوى بالمعولِ فتحطمَ الحجرُ كُلُّهُ وقال : الله أكبرُ ، أُعطيتُ مفاتيحَ اليمنِ ، واللهِ إني لأرى باب صنعاءَ .

---

[1] الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

فقال المسلمون : يارسولَ اللهِ ، ادعُ اللهَ أن يفتحها علينا ويغنمنا ذراريَهم ، ويخربَ بأيدينا بلادَهم ... ؟

فدعا لهم النبيُ ﷺ بذلك .

وفي ذلك يقولُ النبيُّ ﷺ: ﴿إذا هلك قيصرٌ فلا قيصرَ بعدَهُ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعدَهُ ، والذي نفسي بيده لتُنفقنَّ كنوزهُما في سبيل الله ﴾[1] ويقول أيضاً : ﴿إنّ الله زوى[2] لِيَ الأرضَ مشارقها ومغاربها ، وسيبلغُ ملك أمتي مازوى لي منها﴾ [3] .

وصدق رسولُ الله ﷺ فهو الصادقُ المصدوقُ ، والناقلُ عنِ اللهِ تعالى ، وكلُّ مايقولهُ حقٌ وصدقٌ ووحيٌ و الهامُ من اللهِ تعالى الذي يقولُ في وصفِ نبيهِ محمدٍ ﷺ: ﴿ وما ينطقُ عنِ الهوى. إنْ هو إلا وحيٌّ يوحى ﴾[4] صدق الله العظيم .

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير .

[2] زوى : جمع .

[3] رواه الشيخان .

[4] الآيتان ٣ ــ ٤ من سورة النجم .

منذ تلك الحادثةِ كان حلمُ افتتاحِ تلك البلادِ وتحريرهـا من أيدي المحتلين الأجانب يراود أحلامَ النبيّ ﷺ، ويتراءى أمامَهُ في ليلِهِ ونهارِهِ ، ولكنه كان يتريثُ وينتظرُ الفرصةَ المناسبةَ لتحقيقِ أحلامِهِ بتحريرِ عربِ تلك البلادِ وطردِ الغزاةِ الأجانبِ : الفرسِ من اليمنِ ، والشمالِ الشرقي من العراق والرومِ من الشمالِ الغربي من بلادِ الشامِ ، وبذلك تكونُ الأرضُ العربية كلُّها قد تحررتْ من الغزاةِ المحتلين وعادتْ إلى أصحابها وأهلها الشرعيين ، واتصلتْ حدودها الطبيعية من جبالِ طوروسَ في الشمالِ الغربي، وقمم جبال زاغروس في الشمال الشرقي .

ولا يعني أن هدف النبيّ ﷺ من تحرير الأرض العربية نفيُ عالمية دعوته ورسالتهِ وتخصيصُها بالعربِ ، لا فقد كان هذا في بادئ الأمرِ حين كانت دعوةُ الإسلامِ عربية بحتةً وخاصةً بالعربِ، ولكن حين فتح اللهُ لنبيهِ ﷺ مكةَ ودخل النـاسُ في دينِ اللهِ أفواجاً ، وخضع الحجازُ كلُّهُ للدولةِ الإسلاميةِ الفتيةِ ،

أخذتِ الدعوةُ الإسلاميةُ صفةَ العالميـــة ، وشملـــتِ العـــربَ وغيرَهم، وفي ذلك يقولُ الله تبارك وتعالى :

﴿ وأنزلنا إليكَ الذكرَ لتبينَ للناسِ مانزلَ إليهم ولعلّـــهم يتفكرون ﴾ [1] .

﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً ولكنَّ أكـــثرَ الناسِ لا يعلمون﴾ [2] كما أُمِرَ النـــبيُّ ﷺ بقتـــال الكفـــارِ والمنافقين، بقولِهِ تعالى : ﴿ ياأيها النبيُّ جاهدِ الكفارَ والمنافقين واغلظْ عليهم﴾ [3] وهو عامٌّ بقتال جميع الكافرين قال تعالى : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الديـــنُ كلـــهُ لله ﴾[4] ولفظُ التوكيد يفيد الأمر بقتالِ جميع الكافرين ، وقبل ذلـــك كان الأمرُ مقصوراً على قتال مشركي العربِ فقط ، وذلـــك

---

[1] الآية ٤٤ من سورة النحل .

[2] الآية ٢٨ من سورة سبأ .

[3] الآية ٧٣ من سورة التوبة .

[4] الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

بقولِهِ تعالى في سورة البقرة : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنـــةٌ ويكونَ الدينُ لله ﴾ [1] إذ لم يُذكر هنا لفظُ التوكيدِ .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفارِ وليجدوا فيكم غلِظةً واعلموا أنَّ الله مع المتقين ﴾ [2] .

قال القرطبيُّ : وهو أنه سبحانه عَرَّفَهم كيفيةَ الجـهادِ وأن الابتداءَ بالأقربِ فالأقربِ من العدوِ ، ولهذا بدأ رسولُ اللهِ ﷺ بالعربِ ، فلما فرغَ قصَدَ الرومَ وكانوا بالشامِ .

وقال ابنُ زيدٍ : المرادُ بهذه الآيةِ وقتَ نزولها العـــربُ ، فلما فرغَ منهم نزلتْ في الرومِ وغيرهم . [3]

التمهيد لمعركةِ اليرموكِ :

أراد الرسولُ ﷺ أن يثبت للـــروم المجـاورين للدولـــةِ الإسلاميةِ في أطرافِ الشام أنه قادرٌ على حمايةِ حدودِ دولتـــهِ

---

[1] الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

[2] الآية ١٢٣ من سورة التوبة .

[3] تفسير القرطبي .

والدفاع عنها وردّ أيّ عدوانٍ محتمل عليها ، إذ أصبح عنده جيشٌ يستطيع به مواجهةَ أيةِ قوة مهما بلَغتْ عدتُها وعتادها .

فشكل ﷺ جيشاً قوامُهُ ثلاثةُ آلاف مقاتلٍ ، وعيَّنَ عليه زيدَ بنَ حارثة قائداً عاماً وقال لهم : إن أُصِيب زيدٌ فجعفر بنُ أبي طالبٍ على الناس ، فإن أُصيبَ جعفرٌ فعبد الله بنُ رواحةَ على الناسِ ، وأمرهم أن يذهبوا إلى مؤتةَ ، وهي قريةٌ من أرضِ البلقاءِ في الشام لقتالِ الرومِ ، وقد سُمّيتْ هذه الغزوةُ بغزوةِ مؤتةَ ، وذلك في جمادى الأولى سنة ثمانٍ للهجرةِ ، وذلك لإظهارِ قوةِ المسلمين ، وجسِ نبضِ الرومِ والاطلاعِ على قوتِهم وعددهم ، وكشفِ أنواعِ أسلحتهم ، ودراسةِ أساليبهم في فن القتالِ تمهيداً لمعركةٍ فاصلةٍ ، وتحقيقاً لرغبتهِ في تحرير الجزيرة العربية كلها من الفرسِ و الرومِ .

وفي شهرِ رجب من السنةِ التاسعة للهجرة ترامتِ الأنباءُ إلى سولِ الله ﷺ أن الرومَ قد جمعوا له على أطرافِ الشامِ إلى الشمالِ من أرضِ الحجازِ في موضعٍ يقال له تبوك .

فندب الرسولُ ﷺ أصحابَهُ لمواجهةِ الرومِ الذين قدموا بجيشٍ عظيمٍ لغزو المسلمين ، والقضاءِ على دولتهم الفتيةِ ، ووأدِ دعوتهم الإنسانية ، فقام أصحابهُ يتسابقون إلى الجهادِ في سبيلِ دينهم وعقيدتهم ، والدفاع عن أنفسهم وبلادهِم .

وانطلق الرسولُ ﷺ يقودُ أصحابَهُ الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفَ مقاتلٍ .

فلما بلغ الرسولُ ﷺ أرضَ تبوكَ لم يلقَ فيها الرومَ ، ولم يلقَ فيها حرباً ولا كيداً ، فأقام فيها بضع عشرةَ ليلةً ينتظرُ الرومَ ، ويثبتُ لهم قدرتهُ على مواجهتِهم ، وردّ عدوانهم ، لكنهم لما سمعوا بمجيئه شخصياً ، وأنه قدِمَ بنفسهِ للقائهم انسحبوا إلى داخلِ أرضِ الشام لا حتمالين اثنين :

الاحتمال الأول : انهم انسحبوا لاستدراجهِ إلى داخلِ أرضِ الشامِ ثم تطويقهِ والقضاءِ عليه .

لكن الرسولَ ﷺ بحكمتهِ وفطانتهِ وحنكتِهِ في الحربِ والقتالِ لم يتوغلْ داخل ارضِ الشامِ خشيةَ الوقوعِ في فخٍ نصبَ له ، أو مكيدةَ دُبرت للإيقاع به فرجع بجيشهِ إلى المدينةِ

مثبتاً للرومِ أنه قادرٌ على مواجهتهم وردّهم مهما يكن عددُهم كبيراً ، وجيشهم عظيماً .

الاحتمالُ الثاني : أنهم انسحبوا لخوفٍ وقع في قلوبهم منه حين علموا أنه قدم بنفسهِ لقتالهم ، وفي ذلك يقولُ رسولُ الله ﷺ : نُصرتُ بالرعبِ مسيرةً شهرٍ ، وذلك في حديثٍ طويلٍ قال فيه : ﴿أعطيتُ خمساً لم يُعطهنَّ أحدٌ من الأنبياءِ قبلي: نُصِرتُ بالرعبِ مسيرة شهرٍ ، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيُّما رجلٍ من أمتي أدركتْهُ الصلاةُ فلْيصلِّ، وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائمُ ، ولم تحلَ لأحدٍ قبلي وأُعطيتُ الشفاعةَ ، وكان النبيُّ يُبعثُ إلى قومِهِ خاصةً ، وبعثتُ إلى الناسِ عامةً﴾[1].

وقد رويَ أن النبي ﷺ كان إذا خرج لقتالِ قومٍ وعلموا بمقدمِهِ هربوا قبل أن يصلَ إليهم ، ولعلَّ انسحابَ الرومِ من تبوكَ كان من هذا القبيلِ ... والله أعلم .

---

(1) رواه البخاري ومسلم .

وفي السنةِ الحاديةَ عشرة للهجرةِ شكّلَ رســـولُ الله ﷺ جيشاً قوامُهُ خمسةُ آلاف [1] مقاتلٍ ، وأمَّرَ عليه شاباً من خيرة شبابِ المسلمين هو أسامةُ بنُ زيدٍ ﷺ الذي كان يُلقّبُ بالحب ابنِ الحبِ ، وأمره أن يذهب بجيشهِ إلى تخوم الشام للقيام بمـــا يُسمى بـــ (استعراضِ العضلاتِ) أمام الـــرومِ ، وكشـــفِ مواقعهم وتحركاهم وإعلامِهم أن المسلمين ليسوا نـــائمين أو مشغولين عن حمايةِ حدودهم ، بل إنهم متيقظون مســـتعدون لدرءِ أي خطرٍ ، والتصدي لأي هجـــومٍ ، لكـــن لم يلبـــثِ الرسولُ ﷺ أن مرض مَرَضَ الوفاةِ قبل أن يغادرَ جيشُ أســامةَ ابنِ زيدٍ المدينةَ ، لأمرٍ يريدُهُ اللهُ تعالى ، ويعلُمهُ وحدَه ولا يعلمُ الناسُ عنه شيئاً .

أبو بكرٍ الصديقُ وتسييرُ جيشِ أسامةَ :

تُوُفي رسول الله ﷺ ولحق بالرفيقِ الأعلى قبل مسيرِ جيشِ أسامةَ بنِ زيدٍ ، فكانت وفاتُهُ أكـــبر مصيبـــةٍ أُصيـــبَ بهـــا

---

[1] ولعل الصواب سبعمائة مقاتل كما في البداية والنهاية لابن كثير .

المسلمون، فعظم عليهم الخطبُ ، وألَّم بهمُ الحــزنُ ، واشــتدَّ عليهم الحالُ ، ونجم النفاقُ بين أحياءِ العربِ ، وارتدَّ بعضــهم عنِ الإسلامِ ، وامتنع آخرون من أداءِ الزكاةِ ، وعظُمَ الأمــر كما ذكرتُهُ مفصلاً في رسالتي السابقةِ (معركة اليمامة) .

ولما انتهى أمرُ الخلافةِ إلى أبي بكرِ الصديقِ ﷺ كــان أولُ قرارٍ اتخذه هو إنفاذ جيشِ أسامةَ تحقيقاً لرغبةِ رسـولِ الله ﷺ، وتنفيذاً لخطتهِ إظهاراً لقوةِ المسلمين في تخومِ الشامِ ، ورفعــاً لمعنوياتِ العربِ الذين يرزحون تحت نيرِ الاحتلال الرومــاني فيها، فحاول بعضُ الصحابةِ أن يثنوه عن هــذا الأمــرِ لأن المسلمين في حاجةٍ ماسةٍ لذلك الجيشِ للقيامِ بمهمةٍ هي أهمُّ مما سيذهبُ إليها، وكــان علــى رأسِ المعــارضين عمــرُ بــنُ الخطابﷺ، ولكن الصديقَ ﷺرفض معارضتهم ، وأبى إلا أن أن ينفذَ الجيشَ لتنفيذِ خطةِ رسولِ اللهِ ﷺ فقال بعضُ الأنصارِ لعمرَ : قلْ له فليؤمرْ علينا غيرَ أسامةَ .

فذكر له عمرُ ذلك ، فأخذ الصديقُ بلحيته وقال لـــــه : ثكلتْك أمُّك يا ابن الخطابِ ، أؤمّرُ عـــليهم غيرَ أميرِ رســـولِ الله ﷺ ...؟؟..!!

ثم خرج بنفسهِ فاستعرضَ الجيشَ وأمرهم بالمسير وســـار معهم ماشياً ، وأسامةُ راكباً ، فقال له أسامةُ : يا خليفةَ رسولِ الله ، إما أن تركبَ وإما أن أنزلَ . فقـــال الصديـــقُ : واللهِ ليستَ بنازلٍ ، ولستُ براكبٍ .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : واللهِ الذي لا إله إلا هو لولا أن أبا بكرٍ استُخلفَ ماعبِدَ اللهُ ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثةَ.

فقيل له : مَهْ ياأبا هريرةَ .

فقال : إن رسولَ الله ﷺ وجّهَ أسامةَ بنَ زيدٍ في ســـبعمائةٍ إلى الشام، فلما نزل بذي خشبٍ قُبـــضَ رســـولُ الله ﷺ ، وارتدتِ العـــربُ حـــولَ المدينـــةِ ، فاجتـــمع إليـــه أصحـــابُ رسولِ ﷺ فقالوا : يا أبا بكـــرٍ ، رُدّ هـــؤلاءِ ، توجّهُ هؤلاءِ إلى الرومِ وقد ارتدتِ العربُ حولَ المدينةِ ...؟

فقال : والذي لا إله غيرُهُ لو جَرَّتِ الكــلابُ بـأرجلِ أزواجِ رسول الله ﷺ ما رددتُ جيشاً وجَّههُ رسـولُ الله ، ولا حللت لواءً عَقَدَهُ رسولُ الله ﷺ.

فوجَّهَ أسامةَ ، فجعل لا يمرُّ بقبيلٍ يريدون الارتــدادَ إلا قالوا: لولا أنّ لهؤلاء قوةً ما خرج مثل هؤلاءِ مــن عندهــم ولكن ندعُهم حتى يلقوا الرومَ ، فلقــوا الــرومَ فــهزموهم وقتلوهم ، ورجعوا سالمين ، فثبتوا على الإسلام [1] .

وفي روايةٍ : قالتِ العربُ : ماخرج هؤلاء من قــومٍ إلا وهم منعةٌ شديدةٌ ، فقاموا أربعين يوماً ، وقيل : سبعين يومـاً ، ثم رجعوا سالمين غانمين .

وكانوا خلال تلك الفترة يغيرون على الرومِ ومنْ والاهم من عربِ الشامِ ، فيقومــون عليــهم بهجمــاتٍ خاطفــةٍ ، ويوجهون إليهم ضرباتٍ موجعةً أذهلتهم وألقتِ الرعــبَ في قلوبِهم ، وجعلتهم حيارى من أمرهم لمــا كــان المســلمون يمتازون بقوةِ الهجومِ ، وسرعةِ الانتقال ، وإلحــاقِ الخســائرِ

(1) رواه البيهقي ، وانظر البداية والنهاية .

الجسيمةِ بالروم في الوقت الذي لم يصب فيه المسلمون بخسائر تذكر، الأمر الذي جعل الروم يضطرون أن يطلبوا إمـداداتٍ لنصرتِهم ، ولحمايةِ الحدودِ المتصلةِ بحدودِ أرضِ المسلمين الذين أزعجوهم وأقلقوهم بالنهارِ وأقضوا مضجعهم بالليلِ .

ولم يكدِ المددُ الرومانيُّ يصلُ حدودِ الرومِ وحامياتهم حتى فرغ المسلمون من أداء مهمتهم المقدسةِ ، وإظهار بأسهم وتيقظهم، والاطلاع على قوة عدوهم ، وإيقاع الخوفِ والرعبِ في قلوبهم ، ثم رجعوا إلى المدينةِ مُكلّلين بنصرٍ عظيمٍ، ومعنوياتٍ عاليةٍ وإرادةٍ قويةٍ وثابتةٍ .

النتيجةُ :

بظهرُ لنا بجلاءٍ ووضوحٍ حنكةُ النبي ﷺ، وبُعدُ نظره ، وأسلوبُهُ الفذُّ ، وسياستُهُ الحكيمةُ في التخطيطِ للحروبِ وتسيير الجيوش لتحقيقِ حلمِهِ القديم بتحرير الجزيرة العربيةِ كلّها ، ورفع لواءِ الإسلامِ فوق ربوعها ، ولمّ شملِ العرب تحت رايته بعد تحريرهم من الاحتلال الروماني والفارسي ،

واعتناقهم عقيدةَ التوحيد ، وإيمانهم بالله وملائكتِهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، ومن ثمَّ تحقيقُ عالميةِ رسالتهِ ونشرها إلى الناسِ جميعاً تصديقاً لقولِ الحقِ تبارك وتعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ [1].

﴿ وما أرسلناك إلا كافةً للناسِ بشيراً ونذيراً ﴾ [2]

كما يبدو لنا صدقُ أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ ، وإخلاصهُ لدينهِ، وتفانيه في تتبع خطى النبي ﷺ، وتحقيقِ حلمِهِ ، وتنفيذِ خطتهِ ، يبدو ذلك واضحاً من خلال إصرارهِ في إنفاذ جيشِ أسامةَ الذي كان له أثرٌ إيجابي كبيرٌ في إظهار قوةِ المسلمين ، وتخويفِ المرتدين الذين قالوا حين رأوا جيشَ أسامةَ يغادرُ المدينةِ رغم الأخطارِ المحدقةِ بها : ماخرج هؤلاءِ من قومٍ إلا وبهم مَنَعةٌ شديدةٌ.

---

(1) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(2) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

ومن ثمَّ كان لذلك الجيشِ أثره في حمايةِ المدينةِ من المرتدين والأعراب الطامعين بها لاعتقادهم ضعفَ المسلمين نتيجةَ الظروفِ الحرجةِ والقاسيةِ التي كانت تمرُّ بهم .

وكذلك كان له أثرُهُ الكبيرُ في إيقاعِ الرعب في قلوب الرومِ نتيجةَ الإغاراتِ السريعةِ ، والهجمات الخاطفةِ التي كانوا يفاجؤون بها من جيشِ أسامةَ بن زيدٍ ﷺ .

والفضل في ذلك يعودُ قبل كلِ شيءٍ إلى نصرِ اللهِ عز وجل، وتأييده وحمايةِ دينهِ ، ثم إلى رسولِ الله ﷺ الذي وضع الخطةَ ، وشكّلَ الجيشَ ، وبشّرَ أصحابَهُ بقصورِ الشامِ واليمن والمدائنِ ، وأنها ستُفتحُ عليهم وسيد خلوها .

وكذلك إصرارُ أبي بكرٍ ﷺ في إرسال جيشِ أسامةَ يتمثل ذلك بقولِهِ : والذي لا إلهَ غيرُهُ لو جَرَّتِ الكلابُ بأرجلِ أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ ماردَدْتُ جيشاً وجَّهَهُ رسول الله ، ولا حللتُ لواءً عقده رسول الله ﷺ فرضي اللهُ عن أبي بكرٍ وأرضاه ، وشكرَ سعيهُ ، وقبل عملهُ ، وغفر له وأدخله فسيح

جناتِهِ مع الذين أنعم اللهُ عليهم من النبيين والصديقين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً .

أبو بكر يرسلُ أمراءَ الجيوشِ :

لم يكتف ابو بكرٍ الصديقُ ﷺ بإرسال جيشِ أسامةَ الذي أَوْهنَ من عزيمةِ المرتدين ، وأوقع الرعبَ في قلوبِ الروم نتيجة إغاراتِهِ المتلاحقة في أطراف الشامِ ، وعودتِهِ إلى المدينةِ بنصرٍ مؤزّرٍ ، بعد جسٍّ نبضِ الروم ، وأخذ معلومات كافيةٍ عن قوتهم وتحركاتهم وأساليبهم في فنِ القتالِ ، بل قرَّر الصديقُ ﷺ أن يقومَ بهجماتٍ موسَّعةٍ في أطراف الجزيرةِ العربيةِ كلّها تحقيقاً لحلمِ النبي ﷺ بتحرير الأرضِ العربيةِ ، وتوحيدِ أبنائها ، وجمعِ شتاتِهم ، وتخليصهم من ربقةِ العبودية والاستعمار ، فأخذ يقلّدُ الأمراءَ ، ويُجيّشُ الجيوشَ ، ويوجههم في أنحاءِ الأرض العربية على النحو التالي :

١ ـــ يزيدُ بن أبي سفيان قائداً لفرقةٍ مهمتها التوغل في أرضِ الشام لتنتهي بفتحِ دمشقَ ، وجعل معه سُهيلَ بنِ عمروٍ،

وعدداً من زعماءِ أهلِ مكة، وعقد له اللواءَ وخرج معه ماشياً يوصيه ومَنْ معه بتقوى الله تعالى ، وقال له : أُقرئك السلامَ وأستودِعك الله .

ثم عقد لواءً آخر لشرحبيلَ بنِ حسنةَ يكون ردءاً ليزيدَ ، وأمره أن يلحقَ به ، وجعل مهمته التوغل في أرض الشام لتنتهي بفتح بصرى الشام ثم عقد لواء آخر لأبي عبيدة بن الجراح يكون مدداً لهما في أرض الشام وتنتهي مهمته بعد ذلك بفتح حمص .

وكان الصديقُ ﷺ قدِ استعمل عمروَ بنَ العاصِ على صدقات قضاعةَ ومعه الوليدُ بنُ عقبةَ ، فلما رأى أنه بحاجةٍ إليه كتبَ إليه يستنفرُهُ إلى الشامِ ، لأمرٍ أهمَّ وأعظمَ لجدارتِهِ بالحربِ ، وكفاءتِه للقيادة فقال له : إني كنتُ قد رددتُك على العملِ الذي ولاكَهُ رسولُ الله ﷺ مرةً ، وسمّاه لك أخرى، وقد أحببتُ أبا عبدِ الله أن أفرغَكَ لما هو خيرٌ لك في حياتكَ ومعادِك منه ، إلا أن يكون الذي أنتَ فيه أحبَّ إليكَ.

فأجابه عمروٌ لذلك دون ترددٍ أو تقاعسٍ ، وأعلن له أنه جنديٌّ من جنودِ الإسلامِ ، وسيفٌ من سيوفِهِ فليستعملهُ كما يشاء ولما يشاءُ ، ولا يملكُ إلا السمعَ والطاعةَ ، وذلك في كتابٍ ردّ فيه عمروٌ يقولُ :

إني سهمٌ من سهامِ الإسلامِ ، وأنتَ عبدُ اللهِ الرامي بها ، والجامعُ لها ، فانظرْ أشدَّها وأخشاها فارمِ بي فيها .

واستدعى معه الوليدَ بن عقبةَ يكون عوناً له في مهمةٍ مشتركةٍ ومقدسةٍ مهمتها التوغلُ في أرضِ الشامِ لفتحِ العقبةِ والانتهاءِ بفتحِ فلسطينَ ثم مصرَ .

واستدعى الصديقُ ﷺ خالدَ بنَ سعيد بنِ العاصِ من اليمنِ، وأمَّره على جيشٍ مهمته اختراقُ تحشداتِ الرومِ في الشام الذين كان يواليهم قبائلُ عربية كثيرةٌ من نصارى العرب كتنوخ ، وبني كلبٍ ، وسُليمٍ ، ولخمٍ ، وجذامٍ ، وغسانَ وغيرهم .

كما عَيَّنَ الصديقُ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ قائداً لفرقةٍ تكــونُ ردءاً للفرق المتقدمةِ وعوناً ومدداً لها في حالِ احتاجت فرقــةٌ منها إلى مددٍ وعونٍ .

كما عيَّنَ الصديقُ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ قائداً لجيشٍ يكونُ وراء جيشِ أخيه يزيدَ بنِ أبي سفيانَ .

وهكذا تكَّونَ عند أبي بكرٍ الصديقِ جيشٌ كبيرٌ وقــويٌّ اختار له قادةً من خيرةِ الرجالِ ، وأشجعِ الفرسانِ وأكفئــهم خبرةً ، وأشدّهم شكيمةً لا يهابون الموتَ ولا يخافون العــدوَّ ، ولا يخشون الحربَ ، ولا يعبؤون بالطعانِ .

يسخرون من الأهوالِ ، ويستهينون بالصعابِ ، رهبــانٌ بالليل ، ليوثٌ بالنهارِ ، يحبون الموت كما يحبُّ عدوهمُ الحياةَ، وهمُ الذين عاهدوا الله ورسولهُ من قبلُ على الموتِ في ســبيل الله.

وهُمُ الذين استجابوا للهِ والرسولِ من بعدِ مــا أصــابهمُ القرحُ، وهمُ الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وهُمُ الذيــن أحبوا نبيهم ﷺ بكلِ قلوبهم، وحين أحبوه بكلِ قلوبهم أطاعوه

بكلِ قواهم ، وآثروه على النفسِ والمالِ ، والأهلِ والولـــــدِ، والناسِ أجمعين .

أطاعوه في المنشطِ والمكرهِ، وخرجوا يجاهدون في ســـبيل الله خفافاً وثقالاً ، لا يترددون ، ولا يتراجعون ، ولا يشـلقون الرسولَ من بعد ما تبين لهم الهدى ، ولا يجدون في أنفســـهم حرجاً مما قضى ، ولا يكونُ لهمُ الخيرةُ من بعدِ ما أمربه أونهى، وأصبحوا في الدنيا رجالَ الآخرةِ ، وفي اليومِ رجال الغــدِ ، لا تجزعهم مصيبةٌ ، ولا تبطرهم نعمةٌ ، ولا يشغلهم فقــرٌ ، ولا يطغيهم غنى، ولا تلهيهم تجارةٌ ولا تستخفهم قوةٌ ، وأصبحــوا السادة والقادة ، والقدوة الصالحة ، والأسوةَ الحسنة وعصمةً للبشرية ، ووقايةً للعالم ، ودعاةً إلى دينِ الله، ولا يريدون عُلُوّاً في الأرضِ ولا فساداً والعاقبةُ للمتقين .

رجالٌ هذه صفاتهم ، وهذه أخلاقهم ، وهذه تربيتـــهم ، وهذا منشؤهم ، وهذه معاملاتهم وهـــذا ثنـــاءُ اللهِ ورســـولهِ

عليهم: ﴿ من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عـاهدوا الله عليـه فمنهم من قضى نحبهُ ومنهم مَنْ ينتظرُ وما بدّلوا تبديلاً ﴾ (١).

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصارِ والذيـن اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعَدَّهم جنـات تجري تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيمُ ﴾ (٢).

وهمُ الذين مدحَهُمُ ﷺ وأثنى عليهم بقوله فيما روي عـن أبي سعيدٍ الخدري : ﴿ والذي نفسي بيده لو أنفقَ أحدُكم مثل أُحدٍ ذهباً ماأدرك مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفهُ ﴾ (٣) .

وعن جابرٍ قال : قال رسولُ الله ﷺ : ﴿ إن الله اختـار أصحابي على الثقلين ، سوى النبين والمرسلين ﴾ (٤)

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) مسند البزاز ، وانظر الإصابة .

وعن وكيع قال : سمعت سفيان يقول في قوله تعالى ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾ قال : هم أصحاب محمدٍ ﷺ[1] .

رجالٌ أهلٌ لمدحِ الله تعالى لهم ، وثنائِهِ عليهم لا يقولون لخليفةِ رسولِ الله ﷺ : لا ، ولو كان في ذلك حتفهم ، وهذا أحبُّ شيء يريدونه ويتسابقون إليه .

خطبةُ أبي بكرٍ بالجيوشِ :

لما فرغ الصديقُ رضي الله عنه من تشكيلِ الجيوشِ وتأميرِ الأمراءِ ، وتقليدهم الالوية جمَعَهم ، ووقف أمامهم خطيباً يعظهم ، ويأمرُهم بتقوى اللهِ والتزامِ آدابِ الجهادِ كما أمر اللهُ ورسولهُ، وإخلاصِ النيةِ للهِ تعالى ، والتعاون فيما بينهم على البرِ والتقوى، فقال بعد أن حمد اللهَ وأثنى عليه :

ألا لكلِ أمرٍ جوامعُ ، فمن بلغها فهي حسبُه ، ومَنْ عمِلَ للهِ كفاهُ اللهُ .عليكم بالجدِ والقصدِ ، فإن القصدَ أبلغُ ، ألا إنه

[1] الإصابة .

لا دين لاحدٍ لا إيمانَ له ، ولا إيمانَ لمن لا خشيةَ له ، ولا عمل لمن لانيةَ له .

ألا وإنّ في كتابِ الله من الثوابِ على الجهاد في سبيل الله لما ينبغي للمسلم أن يحبَّ أن يُخصَّ به ، هي النجاةُ الـــتي دلّ اللهُ عليها ، إذ نجى بها من الخزي ، ثم أخذ يوصيهم بتقوى اللهِ، والتزامِ آداب الجهادِ ، والعملِ بسماحةِ الإسلامِ ، والتمســكِ بالقيمِ الإنسانيةِ ، و المبادئ الإسلامية ، والرحمةِ الواسعةِ الــتي جاء بها نبيُّ الإسلامِ محمدٌ ﷺ .

فقال الصديقُ ﷺ : انطلقوا بسمِ اللهِ ، وعلى بركةِ اللهِ ، لا تقتلوا شيخاً ولا امرأةً ، ولا طفلاً ، ولا عســيفاً[1] ، ولا تقطعوا شجرةً ، ولا تذبحوا شاةً إلا لمأكلةٍ [2] ...

كلماتٌ عظيمةٌ ورائعةٌ تدلُّ على عظمةِ قائلها ، والديـــنِ الذي صقلهُ ورباه ، والنبي الذي أدّبَهُ وعَلّمَهُ ، والقرآن الذي هداه وهذّبَهُ .

---

(١) العسيف : الأجير .

(٢) لمأكلةٍ : أي للأكل .

ثم أمر الصديقُ ﷺ أمراءه وقوّادَ جيشهِ أن يسلك كل أميرٍ طريقاً غيرَ طريقِ الآخرِ لأنه رأى ببعدِ نظره ، ونورِ بصيرته ، ورجاحةِ عقلِهِ أن ذلك من مصلحةِ المسلمين عامة ، ومصلحةِ الأُمراءِ خاصةً ، وكأنه ﷺ اقتدى في ذلك بنبي الله يعقوبَ عليه السلامُ حين ارسل أبناءه إلى مصرَ وقال لهم : ﴿يابَنِيَّ لا تدخلوا من باب واحدٍ وادخلوا من أبواب متفرقةٍ وما أُغني عنكم من اللهِ من شيءٍ إنِ الحكمُ إلا للهِ عليه توكلتُ وعليه فليتوكلِ المتوكلون ﴾ [1] .

وانطلقت الجيوشُ الإسلاميةُ على راياها وهي تغادرُ المدينةَ وسطِ جموعِ المودعين الذين اضطرمَتْ صفوفُهم وأفئدتُهم حماسةً ومحبةً يلقون عليهم نظراتِ الوداعِ ، ويزودوهم بالنصحِ والدعاءِ، ويوصوهم بتقوى اللهِ ، وإخلاصِ النية في الجهادِ في سبيلِ اللهِ .

هذا ... والمقاتلون يجدّون السرَ ، ويغذون الخطى ، ويضربون في الأرض يرافقهم هليلُ وتكبيرُ المودعين الذي أخذ

---

[1] الآية ٦٧ من سورة يوسف .

يضعفُ ويتضاءلُ شيئاً ... فشيئاً كلما نَقَلت الرواحل خطاها ميممة وجهها شطرَ الشامِ ، آملةً بنصرِ الله وحفظِهِ وتأييدِهِ ورعايتِهِ .

وما إن بلغت الجيوشُ الإسلاميةُ ربوعَ الشامِ حتى توغلتْ بداخلها ، وأخذ كلٌّ اميرٍ موقعهُ المخصَّصَ له ، فنزل عمرو ابنُ العاصِ العرمات من أرضِ الشامِ ، ونزل يزيدُ بنُ أبي سفيان البلقاءَ ، ونزل شُرَحبيل بنُ حسنةَ بالأردن أو ببصرى ، ونزل أبو عبيدة بالجابيةِ ، وهي قريةٌ من أعمالِ دمشقَ قريبةٌ من مرج الصفرِ ويروى أنا أبا عبيدة لما مرَّ بأرضِ البلقاءِ [1] قاتل أهلها حتى صالحوه فكان هذا أولَ صلح وقع بالشامِ .

ويقالُ : إن أولَ قتالٍ وقع بالشام أن الرومَ اجتمعوا بمكانٍ يقال له العربةُ من أرضِ فلسطين ، فذهب إليهم أبو أمامةَ في سريةٍ فقاتلهم وانتصر عليهم وغنم منهم كثيراً ، وقتل منهم بطريقاً عظيماً [2] .

---

[1] البلقاء : من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى .

[2] البطريق بكسر الباء : القائد ، والجمع : البطارقة .

ثم كانت وقعةُ مرجِ الصُّفرِ[1] التي استشهدَ فيها عددٌ من المسلمين وفيهم خالد بنُ سعيد بنِ العاصِ ، وقيل : ابنٌ لخالدِ ابنِ سعيدٍ ، أما هو فقد انحاز إلى أرضِ الحجازِ ونجا ومن معه .

قال الطبريُّ : ولّما انتهى خالدُ بنُ سعيدٍ إلى تيماءَ[2] اجتمع إليه جنودٌ من الرومِ في جمعٍ كثيرٍ من نصارى العرب ، من تنوخٍ، وبني كلبٍ ، وسُليحٍ ، ولخمٍ ، وجُذامٍ وغسانٍ ، فتقدم إليهم خالد بنُ سعيدٍ ، فلما اقترب منهم تفرقوا عنه ، ودخل كثيرٌ منهم في الإسلام ، وبعث إلى الصديقِ يعلمُهُ بما وقع من الفتحِ ، فامرَهُ الصديقُ أن يتقدمَ ولا يحجمَ ، وأمدّه بالوليد بن عقبةَ وعكرمةَ بنِ أبي جهلٍ وجماعةٍ ، فسار خالدُ بنُ سعيدٍ إلى قريبٍ من إيلياءَ[3] ، فالتقى هو وأميرٌ من الرومِ يقال له : ماهان فكسَرَهُ، ولجأ ماهان إلى دمشقَ ، فلحقهُ خالدُ بنُ سعيدٍ . ثم التقى به في مرجِ الصفر ، وكان ماهان قد جمع له

---

[1] مرج الصفر ، أو الصفراء : موضع بين دمشق والجولان .

[2] تيماء : بلدة في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى على طريق الحجاج

[3] إيلياء : بيت المقدس .

عدداً كبيراً من الروم فهجموا عليهم ، وأخذوا عليهم الطريقَ، ففر خالدُ بنُ سعيدٍ ولجأ إلى ذي المروةِ ، واستحوذ عليهم الرومُ إلا من فرَّ منهم على الخيلِ .

أما عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ فقد ثبت مع مَنْ معه ثم تراجع عنِ الشامِ ليبقى ردءاً لمن نفر إليه .

استدعاءُ خالدٍ من العراقِ إلى الشامِ :

رأينا من خلالِ النظرةِ السريعةِ التي ألقيناها على أعمالِ الجيوشِ الإسلامية في أرضِ الشامِ ، واشتباكِها مع الجيوشِ الرومانية ، أنها لم تحققِ انتصاراً كاسحاً وسريعاً ، ولم تفلحْ في فتحِ الشامِ كما أفلح خالد بنُ الوليد ﷺ في العراقِ .

خاصةً وقد حشد الرومُ جيشاً كبيراً وجرّاراً قِوامُهُ مئتا ألفٍ ويزيدون أربعين ألفاً ، وجعلوا في مقابلةِ كلِ أميرٍ من المسلمين جيشاً كثيفاً ، فبعثوا إلى عمروِ بنِ العاصِ (تذارق) أو البندارق، أو تيودوريك وكان أخاً لهرقل ملك الروم ، ومعه تسعون ألفاً من المقاتلين الرومِ .

وبعثوا جرجه بن يوذيها إلى ناحية يزيدَ بنِ أبي سفيانَ ، فعسكر بإزائهِ في خمسين ألفاً ، أو ستين ألفاً .

وبعثوا القيقلان في ستين الفاً إلى أبي عبيدةَ .

وبعثوا الدراقصَ في ثلاثين ألفاً إلى شرحبيلَ بنِ حسنةَ ، وهكذا وزّعَ الرومُ جنودهم بإزاءِ جيوشِ المسلمين ، وقالوا : واللهِ لنشغلنَّ أبا بكرٍ عن أن يوردَ الخيولَ إلى أرضنا .

هذا ... وكان عددُ جيوشِ المسلمين لا يزيدُ على أحدٍ وعشرين ألفاً سوى الذين كانوا مع عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ ، وكان وافقاً في طرف الشامِ ردءاً لإخوانهِ من القادةِ والأمراءِ كما تقدم، ومعه ستةُ آلاف .

فلما بلغ الامراءَ والقادةَ المسلمين خبر الرومِ ، وتوزيعُ جيوشهم بإزاء جيوشِ المسلمين ، كتبوا إلى أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ يعلمونه بخبر الرومِ ، ويضعون أمامَهُ صورةً حقيقيةً للمشهدِ .

فكتب إليهم يقولُ : اجتمعوا ، وكونوا جنداً واحداً ، والقوا جنودَ المشركين ، فأنتم أنصارُ اللهِ ، واللهُ ينصرُ مَنْ

نصرَهُ، وخاذلَ مَنْ كفره ، ولن يُؤتى مثلكم عن قلةٍ ، ولكن من تلقاءِ الذنوب ، فاحترسوا منها ، ولْيصل كلُّ رجلٍ منكم بأصحابه .

ثم قررَ ﷺ أن يستدعي سيفَ الله خالدَ بنَ الوليدِ ﷺ من العراقِ ليجعلَ له إمرةَ الجيشِ في الشامِ وقال : والله لأشغلَنّهم عن وساوسِ الشيطانِ بخالدِ بنِ الوليد .

إنه تعبيرٌ صادقٌ عن ثقتِهِ المطلقةِ بخالدٍ ، وحبهِ الكبير ، وأمانتِهِ العظيمةِ لأميره الشهمِ ، وفارسِهِ العظيم سيف الله خالدِ ابنِ الوليدِ ﷺ .

لقد رأى الصديقُ أن الأمراءَ الذين انتدبهم لفتحِ الشامِ لم يفلحوا كما أفلح خالدٌ في العراق ، إنه يريدُ فتحاً سريعاً ، ونصراً حاسماً يبهرُ الابصارَ ، ويأخذُ بالألبابِ كفتحِ خالدٍ السريعِ والحاسمِ والمبهرِ والمحيرِ .

يريدُ أن يحقق حلمَ النبي ﷺ القديمَ بفتحِ الجزيرةِ العربيةِ كلّها ليضمنَ لرعيته الأمنَ والأمان ، والسلام والاطمئنان ، ويطهّر حدود دولتِهِ من أطماعِ الفرسِ والرومِ ، وقد أفلح

خالدٌ ونجح بتطهيرها من الفرس في العراقِ ، وقد استدعاه الآن ليقومَ بنفسِ المهمةِ ، وليحقق النصر ذاتَهُ في الشامِ ، ولذلك حين كتب إليه أمراءُ الجيوشِ ، ووصفوا له الحالة العسكرية والتحشدات الضخمة من الرومِ ، وطلبوا منه المددَ قال ﷺ : خالدٌ لها فكتب إليه على الفورِ أن يستخلفَ على العراقِ المثنى بن حارثةَ ، وأن يتوجهَ بَمنْ معه إلى الشامِ ، فإذا وصل إلى الأمراءِ فيها فهو الأميرُ عليهم .

فاستناب المثنى بنَ حارثةَ على العراقِ ، وانطلق مسرعاً في تسعةِ آلافٍ وخمسمئةٍ ودليلُهُ على الطريقِ رافعُ بنُ عميرةَ الطائيُّ.

خالد يتوجهُ نحو الشام :

ومضى خالدٌ ﷺ مودّعاً أرضَ العراقِ ، ميمماً وجهَهُ شطرَ الشامِ، ، منفذاً أمر الخليفةِ الصديقِ من غيرِ تراجعٍ ، ولا تذمرٍ، ولا ترددٍ فالسمعُ والطاعة والولاءُ المطلقُ من خلقِ المسلمِ التي تعلَّمَها وطبعَ عليها تنفيذاً لأمرِ اللهِ تعالى : ﴿ ياأيها

الـــذين آمنـــوا أطيعـــوا الله وأطيعوا الرســـولَ وأولي الأمـــرِ منكـــم ﴾ [1] .

ولأمرِ الرسولِ ﷺ : ﴿ أوصيكم بتقوى الله ، والســـمعِ والطاعةِ وإن عبداً حبشياً ، فإنه مَنْ يعشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ﴾ [2] الحديث ... فهو يعلمُ أن طاعـــةَ الأمـــيرِ واجبةٌ وإن كان عبداً حبشياً ، لأنها أمرٌ من اللهِ تعالى بشرطِ أن تكونَ في طاعةِ اللهِ ، وإلا فإنه لا طاعةَ لمخلـــوقٍ في معصيـــةِ الخالق . وانطلق خالد ﷺ بجنوده يضرب في الأرض ، يقطـــع البيداء المترامية ، وقد سلك أرضا لم يسلكها قبلـــه أحـــد ، فاجتاز البراري والقفار ، وقطع الأودية ، وصعـــد الجبـــال ، وتسلق التلول والهضاب ، وتعرض للجوع والعطش ، وهـــو وجنوده صابرون يغالبون التعب ويتفوقـــون علـــى الجـــوع والبطش وينتصرون على الخوف والجزع وهم الذين لم يجـــد

---

[1] الآية ٥٩ من سورة النساء .

[2] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي والترمذي وقال : حسن صحيح

والجزع إلى قلوبهم سبيلاً ، فلما فقدوا الماء واشتدبهم وبرواحلهم العطشُ أمر خالدٌ بنحرِ الإبل فنُحرت، فاستخرجوا ما في بطونها من ماء فشربوه، ويمكنُ أن يُقالَ : إنهم سقوا الخيلَ مافي بطونِ الإبلِ من ماءٍ ، وشربوا ما كانت تحملُهُ من الماءِ وأكلوا لحومها ، ومضوا يغذون السيرَ ، ويمدون الخطى حتى انتهوا إلى الرومِ من جهة تدمر فصالحه أهلها وتابع سيرَه حتى أصبح قريباً من شرقي دمشقَ ، وقدِ استغرقتْ معه هذه الرحلةُ المقدسةُ خمسةَ أيامٍ ، وعلى الرغمِ من التعبِ والإعياءِ ، والجوعِ والعطشِ الذي أصابه ولحق بجنودهِ كلن لا يمرُّ بسريةٍ للرومِ إلا قاتلها ، ولا بقبيلةٍ عربيةٍ مواليةٍ للرومِ إلا هاجمها وانتصر عليها وأخذ منها الغنائم حتى اجتمعتْ أمامهُ أموالٌ كثيرةٌ من غسانَ غيرها ، فبعث بها إلى الصديق مع بلالِ بن الحارث والمزني ، وكان قد مرَّ في طريقهِ ببعضِ العربِ فقالوا له : إن أنتَ أصبحتَ عند الشجرةِ الفلانية نجوتَ أنتَ ومَنْ معك ، وإن لم تدركها هلكت أنت ومن معكَ، وتابعَ

سيرَه ، ولم يقف حتى بلغها عند الصباح ، وفي ذلك يقولُ أحد جنودِ المسلمين وكان مع خالدٍ يصفُ هذا المسيرَ :

للـهِ عينا رافـعٍ أنّـى اهتـدى	فـوّزَ مـن قراقـر إلـى نـوى
خمساً إذا ما سارها الجيشُ بكى	ماسارها قبلـك إنسـيٌّ أرى

يريدُ برافعٍ رافعَ بنَ عميرةَ الطائي دليـلَ خـالدٍ علـى الطريقِ، وفوّزَ : هلك ، قراقرُ ونوى : موضعان بأرضِ الشـامِ خمساً: يريدُ أن الرحلةَ دامتْ خمسةَ أيامٍ .

وصولُ خالدٍ إلى الشامِ وتوليه القيادة :

وصل خالدٌ ﷺ بجنوده إلى الشامِ في أواخرِ جمـادى الأولى سنةَ ثلاثَ عشرةَ للهجرةِ ، فوجد الجيوشَ الإسلاميةَ متفرقةً ، فجمعهم ، ونهاهم عنِ التفرقِ والاختلاف ، وأمرهم بالتعـاون والاتحاد امتثالاً لقولِ الحقِ تبارك وتعالى : ﴿ واعتصموا بحبـلِ

اللهِ جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداءً فألفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتِهِ إخواناً ﴾ (١) .

﴿ وأعّدوا لهم مااستطعتم منْ قوةٍ ومِنْ رباط الخيل ترهبون به عدوّ اللهِ وعدوّكم ﴾ (٢)

﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا اللهَ ورسولهِ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم واصبروا إنّ اللهَ مع الصابرين ﴾(٣) .

ثم وقف فيهم خطيباً يشجعهم ، ويلهبُ حماسهم ، ويعلن أمامهم أنه فردٌ منهم لا فرق بينه وبينهم ، فقال بعد أن حمِدَ اللهَ وأثنى عليه :

إن هذا يومٌ من أيامِ اللهِ ، لا ينبغي فيه الفخرُ ولا البغيُ ، أخلصوا جهادَكم ، وأريدوا اللهَ بعملِكم ، وإن هذا يومٌ له ما بعده لو رددناهُمُ اليومَ إلى خندقِهِم فلا نزالُ نردُّهم وإن

(١) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

(٣) الآيتان ٤٥ ــ ٤٦ من سورة الأنفال .

هزمونا لا نفلح بعدها أبداً فتعالوا فلنتعاورِ الإمارةَ ، فليكن عليها بعضُنا اليومَ ، والآخرُ غداً ، والآخرُ بعدَ غدٍ حتى يتأمَّرَ كلكم ، ودعوني اليومَ أليكم ﴾ (١)

استعدادُ الجيشِ الإسلامي :

ويتولّى خالدٌ ﷺ القيادةَ العظمى للجيشِ الإسلامي ، وجعله كراديسَ كلٌّ كردوسٍ ألفُ رجلٍ وعليهم أميرٌ .

فجعل أبا عبيدةَ في القلبِ ، وعلى الميمنةِ عمروَ بنَ العاص ومعه شُرحبيلُ بنُ حسنةَ ، وعلى الميسرةِ يزيدَ بنَ أبي سفيان ، وعلى الطلائعِ قبابَ بنَ أشيم ، وعلى الأقباضِ عبدَ الله بن مسعودٍ ، والقاضي عليهم يومئذٍ أبو الدرداءِ ، والذي يعظهم ويحثُّهم على القتالِ أبو سفيان بنُ حربٍ ، والقارئ الذي يدور على الناس ، ويتلو عليهم سورة الانفال وآياتِ الجهادِ المقدادُ ابنُ الاسودِ .

---

(١) أليكم : أي ألي أمركم : يريد الامرة .

فقال رجلٌ من نصارى العربِ لخالدِ بنِ الوليد : ما أكثرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين ...!

فقال له خالدٌ ﷺ : ويلك ، أتخوفني بالرومِ ...؟ إنما تكثرُ الجنودُ بالنصرِ ، وتقلُّ بالخذلانِ لا بعددِ الرجالِ ، والله لوددْتُ أن الأشقرَ بريءٌ [1] من توجعهِ ، وأنهم أُضعفوا في العددِ.

واجتمع أكابر الصحابة للشورى ودراسةِ الموقفِ العسكري ، والظروفِ الراهنةِ ، فقال أبو سفيانَ : ما كنتُ أظنُّ أني أعمَّر [1] حتى أدرك قوماً يجتمعون لحربٍ ولا أحضُرُهم، ثم أشار أن ينقسمَ المسلمون ثلاثةَ أجزاءَ :

١ ـ أن يسير الثلثُ فينزلون تجاه الرومِ .

٢ ـ ثم تسيرُ الأثقال والذراري في الثلثِ الآخرِ .

٣ ـ أن يتأخر خالدٌ بالثلثِ الأخيرِ حتى إذ وصلتِ الأثقال والذراري إلى أولئك سار بعدهم ، ونزلوا في مكانٍ

(1) يريد بالأشقر فرسَهُ ، وكان قد حفى واشتكى لطولِ مسيرهِ في مجيئهِ من العراقِ .

(1) أعمَّر : أي يطول عمري .

واسعٍ لتصل إليهم الرسلُ الذين يحملون إليهم كتبَ الخليفةِ الصديقِ، والمددُ إن احتاجوا إليه .

فاستحسنوا جميعاً هذا الرأي ، واتفقوا عليه .

ويقالُ : إن الرومَ اجتمعوا في مكانٍ يقال له : الواقوصةُ على مقربةٍ من اليرموكِ ، وصار وادي اليرموك خندقاً عليهم ، هذا ... والمسلمون متيقظون أشدَّ ما يكون الحرصُ والتيقظُ ، فتحولوا من مكانهم فنزلوا قريباً من الرومِ في طريقهم الذي ليس لهم طريقٌ غيرُهُ ، فقال لهم عمروُ بنُ العاصِ ﷺ : أبشروا أيها الناسُ ، فقد حُصرتْ واللهِ الرومُ ، وقلما جاء محصورٌ بخيرٍ.

فكان اجتماعُ الرومِ عند الوادي فألَ خيرٍ للمسلمين ، وكأنهم اختاروه ليكونَ مقبرةً لهم ، لذلك بشَّرهم عمرو بنُ العاصِ بالخيرِ لمالَهُ من خبرةٍ فائقةٍ في فنِ الحربِ ، ومكرٍ ودهاءٍ، وألمعية وذكاءٍ في التخطيط للحروبِ ، ومقابلةِ الفرسانِ والأمراءِ ...

استعدادُ الجيشِ الروماني

حين علمتِ الرومُ بمجيء خالدٍ من العراقِ بعثوا ما هـــانَ وكان من خيرةِ قوادهم ، فجاء مدداً للجيـــوشِ الرومانيـــةِ ليتكامل جيشهم أربعين ومئتي ألفٍ ، كـــان تقســيمُهُ علـــى الشكلِ التالي :

١ ـــ ثمانون الفاً مسلسلون بالحديدِ والحبالِ كي لا يفروا من أرضِ المعركةِ .

٢ ـــ ثمانون ألفاً ، فرسانٌ .

٣ ـــ ثمانون الفاً ، مشاةٌ .

وقيل : بل تسلسل كلٌّ عشرةٍ سلسلةً لئلا يفروا ، وكانوا ثلاثين ألفاً . في حين بلغ جيشُ المسلمين ستةً وثلاثين الفاً ، إلى أربعين ألفاً بعد أن انضمَّ إليهم عكرمةُ بنُ أبي جـــهلٍ بســـتةِ آلاف كانوا معه .

عيونُ الروم عند المسلمين :

أراد الرومُ أن يأخذوا أخبار المسلمين ، ويطلعوا على عاداتهم ومعاملاتهم وسلوكِهم ، فبعثوا إليهم رجلاً من نصارى العربِ ، فلما رجع سألوه عنهم ، فقال لهم :

وجدتُ قوماً رهباناً بالليلِ ، فرساناً بالنهارِ ، واللهِ ، لو سرقَ فيهم ابنُ ملكهم لقطعوه ، أو زنى لرجموه .

فقال له أميرُهم القيقلان : واللهِ لئنْ كنتَ صادقاً لبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها .

ويروى عن يحيى بنِ يحيى الغساني أنه حدّث عن رجلين من قومِهِ قال : لما نزل المسلمون بناحيةِ الأردن ، تحدثنا بيننا أن دمشق ستحاصرُ ، فذهبنا نتسوقُ منها قبلَ ذلك ، فبينا نحن فيها إذ أرسل إلينا بطريقُها ، فجئناه فقال :

أنتما من العربِ ...؟

قلنا : نعم .

قال : وعلى النصرانيةِ ...؟

قلنا :نعم .

فقال : ليذهبْ أحدُكما فليتجسَّسْ لنا عن هؤلاءِ القـــومِ ورأيهم ، ولْيثبتِ الآخرُ على متاعِ صاحبِهِ .

ففعل ذلك أحدُنا ، فلبث ملياً ، ثم جاءه فقال : جئتُـــك من عندِ رجالٍ دقاقٍ يركبون خيولاً عتاقاً ، أما الليلَ فرهبانٌ ، وأما النهارَ ففرسانٌ ، يريشون النبلَ ويبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدثتَ جليسَكَ حديثاً ما فهمه عنك لما علا من أصواتهـــم بالقرآنِ والذكرِ .

قال : فالتفتَ إلى اصحابِهِ وقال : أتاكم منهم ما لا طاقــةَ لكم به .

أحداث معركة اليرموك

اللقـاء :

التقى الجيشان في اليرموكِ ، وخرج المقاتلون المسلمون على راياهم ، وعلى ميمنةِ الجيشِ معاذُ بنُ جبلٍ ، وعلى ميسرتِهِ نفاثةُ بنُ أسامةَ الكنانيُّ ، وعلى المشاةِ هاشمُ بنُ عتبةَ بنِ أبي وقاصٍ ، وعلى الخيالةِ خالدُ بنُ الوليدِ رضي الله عنهم أجمعين .

وأقبلَتِ الرومِ بجدّها وحديدِها ، وفخرها وخيلائها وقد سَدَّتْ بكثرتها أقطارَ تلك الارضِ سهلَها ووعرها وكأنهم غمامةٌ سوداءُ ، وهم يصيحون بأصواتٍ مرتفعةٍ ، ورهبانهم يتلون الإنجيلَ ، ويحثونهم على القتالِ ، ويشجعونهم على الثباتِ لدحرِ المسلمين ، وردّهم على أعقابهم .

نظر خالدٌ ﷺ إلى الرومِ فبهره ذلك المشهدُ ، وما فيه من جموعٍ كثيرةٍ ، وأصواتٍ عاليةٍ ، ورجاتٍ عنيفةٍ هزَّتِ الارضَ هزاً ، وملأتِ الأفقَ من حولها خوفاً ورعباً ، فقرر بذكائه

الخارقِ وبفكرهِ الثابتِ أن يجريَ بعضَ التعديلاتِ في صفوفِ جيشِهِ قبلَ أن يُصابَ جنودهِ بالخوفِ والوهنِ ، ويسريَ بين صفوفهم الذعر والفوضى .

فطلب من أبي عبيدة أن يترك القلب ، ويرجعَ إلى المؤخرةِ حتى إذا ما فكّرَ أحدٌ بالهربِ رآه فاستحيا منه ، ورجع إلى مكانهِ في أرضِ المعركةِ .

وجعل مكانَهُ سعيدَ بنَ زيدٍ رضي الله عنه ، وهو واحدٌ من العشرةِ المبشرين بالجنةِ على لسانِ رسولِ الله ﷺ .

ثم دعا النساءَ وأعطى كلّ امرأةٍ منهنّ سيفاً ، وأمرَهُنَّ أن يقفنَ خلف صفوفِ المقاتلين المسلمين من كلِ جانبٍ وقال لهنّ: مَنْ يولّ هارباً فاقتلْنَهُ ، ثم رجع إلى موقِعِهِ في قيادةِ المعركةِ.

أقوالٌ صادقةٌ في الحثِ على القتالِ

١ ـــ ولّما تراءى الجمعان ، وتبارز الفريقان وقف بعض الصحابةِ رضي الله عنهم يعظون المسلمين ، ويحثونهم على القتالِ ، ويذكرونهم بفضلِ الصبرِ والثباتِ في وجهِ العدو ، وعدمِ الفرارِ من أرضِ المعركةِ امتثالاً لقولِ الحق تبارك وتعالى:

﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتُمُ الذين كفروا زحفاً فلا تُولُّوهمُ الأدبارَ . ومنْ يُولهم يومئذٍ دُبُرَهُ إلّا متحرفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ من اللهِ ومأواهُ جهنم وبئسَ المصيرُ ﴾ [1].

﴿ ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾ [2] من أجلِ هذا ، وامتثالاً لقولِ الحقِ تبارك وتعالى قام المؤمنون الصادقون ، المخلصون لدينهم

---

[1] الآيتان ١٥ ـــ ١٦ من سورة الأنفال

[2] الآية ٤٥ من سورة الأنفال .

وعقيدتهم ، والغيورون على أمتهم ووطنهم ، الحريصون على تحقيق النصرِ ، ورفع لواءِ الإسلامِ عالياً خفاقاً ، منهم :

١ ـ أبو عبيدة عامرُ بنُ الجراحِ ﷺ :

وهو واحدٌ من العشرةِ المبشرين بالجنة .

فقد قام ﷺ ، ووقف أمام المسلمين خطيباً فقال : عبادَ الله، انصروا اللهَ ينصركم ويثبتْ أقدامكم . يامعشرَ المسلمين، اصبروا ، فإن الصبرَ منجاةٌ من الكفرِ ، ومرضاةٌ للربِ ، ومدحضةٌ للعارِ ، ولا تبرحوا[1] مصافَّكم ، ولا تخطوا إليهم خطوةً ، ولا تبدؤوهم بالقتالِ ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرقِ [2] ، والزموا الصمتَ إلا مِنْ ذكرِ اللهِ في أنفسكم حتى آمركم إن شاء اللهُ تعالى .

٢ ـ معاذُ بنُ جبلٍ ﷺ :

الذي خرج على الناسِ وجعل يذكرهم باللهِ تعالى ، وأنهم حفظةُ كلامِ اللهِ تعالى الذين شرَّفهم اللهُ تعالى بحمله في أفئدتهم،

---

(١) لاتبرحوا : لا تغادروا .

(٢) الدرق : ضرب من التُروس ، الواحدة : درقةٌ .

وحفظه في صدورهم ، والعمل بأحكامهِ وآدابه ، وأنهم أولى الناسِ بالصبرِ والثباتِ عند المحنِ والشدائدِ ولقاءِ العدو ، فقال رضي الله عنه :

يا أهلَ القرآنِ ، ومتحفظي الكتابِ ، وأنصارَ الهدى والحقِ، إن رحمةَ اللهِ لا تُنالُ وجنَتَهُ لا تُدخلُ بالاماني ، ولا يؤتي اللهُ المغفرةَ والرحمةَ الواسعةَ إلا الصادقَ المصدِّق .

ألم تسمعوا لقولِ اللهِ تعالى : ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ [1] . فاستحيوا رحمكم اللهُ من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم وأنتم في قبضتهِ وليس لكم مُلْتحدٌ [2] من دونهِ ، ولا عزٌ بغيره .

٣ ــ وكذلك وقف عمرو بنُ العاصِ رضي الله عنه يخطبُ بالمسلمين، ويحثهم على التضحيةِ والفداءِ في سبيلِ اللهِ تعالى ، فقال: يا أيها المسلمون ، غضوا الأبصار ، واجثوا على

---

(١) الآية ٥٥ من سورة النور .

(٢) مُلْتحدٌ : ملجأً .

الركب، وأشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فامهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة [1] فثبوا إليهم وثبة الأسد ، فو الذي يرضي الصدق ، ويثيب عليه ، ويمقت الكذب ، ويجزي بالإحسان إحسانا لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفرا كفرا [2] ، وقصرا قصرا ، فلا يهولنكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشد تطايروا تطاير أولاد الحجل .

٤ ـ أبو سفيان بن حرب ﷺ :

الذي كان له شرف المشاركة في هذه المعركة الخالدة ، وشرف تشجيع المسلمين ، وإلهاب حماسهم للذود عن حمى الإسلام والاستبسال في سبيل الله تعالى ، فقام خطيبا وقال :

يامعشر المسلمين ، أنتم العرب وقد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل ، نائين[3] عن أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين، وقد أصبحتم بإزاء عدو كثير عدده ، شديد عليكم

---

[1] الأسنة : الرماح .

[2] الكفر بفتح الكاف وسكون الفاء : القرية ، والجمع : كفور .

[3] نائين : بعيدين .

حنقُهُ [1] ، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم ، والله لا ينجيكم من هؤلاء القومِ ، ولا يبلغ بكم رضوانَ الله غداً إلا بصدقِ اللقاء، والصبرِ في المواطنِ المكروهةِ .

ألا وإنها سنةٌ لازمةٌ ، وإن الأرضَ وراءكم ، وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعةِ المسلمين صحارى وبراري ليس لأحدٍ فيها معقلٌ ولا معدِلٌ إلا الصبرُ ، ورجاءُ ماوعَدَ الله فهو خيرٌ معولٍ ، فامتنعوا بسيوفكم ، وتعاونوا ولتكنْ هي الحصون ثم ذهبَ إلى النساءِ فخطب فيهن ، ووعظهنَّ ، وأوصاهُنَّ بالصبرِ والتقوى ومراقبةِ الله تعالى في السرِ والعلانيةِ .

ثم رجع إلى صفوفِ المقاتلين فوعظهم وقال : يامعاشِرَ أهلِ الإسلام ، حضر ماترون فهذا رسولُ الله والجنةُ أمامكم ، والشيطانُ والنارُ خلفكم .

٥- أبو هريرة عبدُ الرحمن بنُ صخرٍ الدوسيُّ رضي الله عنه :

كذلك كان له موقفٌ شجاعٌ ، وكلمةٌ طيبةٌ تركت أثراً طيباً في قلوبِ المسلمين ، فقد وقف خطيباً أمام المقاتلين ،

---

[1] الحنق : الغيظ ، وحنق حنقاً : اغتاظ فهو حَنِقٌ .

وأخذ يذكرهم بما أعد الله تعالى للمجاهدين والشهداء في سبيله من نعيم مقيم ، ورزق كريم، وجزاء جزيل دائم ، وخالد ، فقال ﷺ :

سارعوا إلى الحور العين ، وجوار ربكم عز وجل في جنات النعيم .

ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحب إليه منكم في مثل هذا الموطن ، ألا وإن للصابرين فضلهم .

ولقد سرت هذه الكلمات الصادقة إلى قلوب المقاتلين فأثارت فيها روح الحماسة والشجاعة وحب الموت في سبيل الله طيبة به نفوسهم ، صادقة به قلوبهم ، مشتاقة إليه أرواحهم، متسابقون لنيل رضوان الله تعالى ، واللحاق برسولهم وكأنهم معه على موعد ، فالله تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ﴾ [1]

ولأبي سفيان موقف آخر مشرف ، فقد وقف أمام المسلمين

---

[1] الآية ٤٠ من سورة الحج .

ورفع يديه إلى السماء يدعو الله عز وجل بعـــد أن خــاطب المسلمين قائلاً : الله .... الله ... إنكم دارةُ العربِ وأنصارُ الإسلامِ، وإنهم دارةُ الرومِ وأنصارُ الشركِ اللهم إن هذا يــومٌ من أيامِكَ اللهم أنزلْ نصرَكَ على عبادِكَ .

وقد روي أنه كان يومئذٍ مع المسلمين مئةٌ من أهلِ بدرٍ، وهم أفضلُ الصحابةِ على الإطلاقِ ﷺ وأرضاهم .

المبــارزةُ : خالدٌ ﷺ وما هان قائدُ جيش الروم .

قبل بدءِ المعركة برز ماهانُ قائدُ جيشِ الــــروم في أرض المعركةِ ، وطلب خالداً للمبارزةِ ، فبرز إليه خالدٌ فلما تحاذيا ، وأصبحا وجهاً لوجهٍ قال ماهانُ : إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم الجهدُ والجوعُ ، فهلمّوا إلى أن أعطي كلّ رجـــلٍ منكم عشرة دنانيرَ وكسوةً وطعاماً وترجعون إلى بلادكــــم ، فإذا كان من العامِ المقبلِ بعثنا لكم بمثلها .

فلما سمع خالدٌ ﷺ كلامَهُ ، ولمسَ منــــه ســوءَ الأدبِ والإهانةَ ، رَدَّ عليه بإهانةٍ مماثلةٍ ، بل رَدَّ عليه بتهديدٍ ووعيدٍ ، وما كان لخالدٍ ﷺ أن يقبلَ بمثلِ هذه الإهانةِ أو يسكتَ عنــها

وهو الذي كرّمهُ اللهُ عز وجلّ بالإسلامِ، وأعَــزّه بالإيمــان ، وشَرّفَهُ بصحبةِ رسولِ الله ﷺ ، وتمثيل المســلمين في النبــلِ والشهامةِ والبلاءِ ، خاصةً في مثلِ هذا الموقفِ الذي يجــبُ أن يُظهِرَ فيه كلّ إباءٍ وعزةٍ وشمــوخٍ ، ولله العــزةُ ولرســولِهِ وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون .

لذلك رَدَّ عليه خالدٌ ﷺ قائلاً : إنه لم يخرِجْنا من بلادنــا الجوعُ كما ذكرت ، ولكننا قومٌ نشربُ الدماءَ ، وقد علمنــا أنه لا دمَ أشهى ولا أطيبُ من دم الرومِ فجئنا لذلك .

فقال بطارقةُ الرومِ ، هذا واللهِ ما كنا نحدَّثُ بــه عــنِ العربِ.

بـدءُ القتالِ :

ألقى خالدٌ ﷺ كلماتِهِ الرائعةَ ، وتهديداتِهِ الجريئة أمــام ماهانَ وبطارقتِه وجنودِهِ ، ثم لوى عنقَ جــوادِهِ راجعــاً إلى صفوفِ جيشِهِ مؤذناً ببدءِ القتالِ ، قائلاً : اللهُ أكــبرُ ، هُبّــي رياحَ الجنّةِ ، ثم مدَّ يمينَهُ ملوِّحاً بسيفهِ البتّارِ الذي أخذ يشــقُّ

الهواءَ وله لمعانٌ كالبرقِ ، وصوتٌ كقصفِ الرعدِ كأنه ينـــذرُ الرومَ بالموتِ الزؤامِ ، ويحملُ لهمُ المنايا ، ويؤذنُ بنهايتـــهم و دمارِهم وطردِهم وإلى الأبدِ من أرضِ العربِ .

والتحم الجيشان ، وشدَّ كلٌّ فريقٍ على عدوه، وحمـــيَ الوطيسُ ، وتهاوتِ السيوفُ ، وتصايح الفرسانُ ، وتواثـــبت المنايا، وتساقطتِ القتلى ، وتنادى المسلمون بشعارِهِمُ المقدسِ الله أكبرُ .. الله أكبرُ .. وا محمداه .. وا محمداه ..

هذا .. وكلُ قائدِ كردوسٍ يشجعُ جنـــودَه ، ويذكـــي فيهم روحَ التضحية والفداء ، والنســـاءُ يشـــجعنَهم علـــى الصمودِ وعدمِ الفرارِ ، ويُسمِعْنَهم عبارات الحثِ على الصـــبر والمضاءِ ، ويلهبْنَ حماسَهم على الكرِ وتسطير آياتِ البطولـــةِ و المضاءِ ..

صورٌ من بطولاتِ الصحابةِ

ولقد أبلى المسلمون يومئذٍ بــــلاءً حســـناً ، وقـــاموا ببطولاتٍ رائعةٍ تفوقُ الخيالَ وتذهـــلُ العقـــولَ ، وتدهـــشُ الأبصار .

١- فهذا المقدادُ بنُ الأسودِ ﷺ الذي أخذ يدور بـــين المسلمين ، ويخطرُ بجوادهِ وسطَ جنودِ الروم فيخترقُ جموعَـــهم لينتهيَ إلى الطرفِ الآخرِ وهو يتلو آياتِ الجهادِ من ســـورةِ الأنفالِ بلسانهِ ، بينما سيفُهُ يقطفُ رؤوسَ الكفـــرِ ويحطّـــم هاماتِهم وكأنه بمفردهِ جيشٌ كاملٌ وجرارٌ ، وهو يلوحُ بسيفِهِ في الأفقِ وكأن الناظرَ إليه لا يكادُ يبصرُ فارساً واحداً ، وإنمـــا ينظرُ إلى جيشٍ لجبٍ سَدَّ بكثافتِهِ الأفق يميناً وشمالاً ، وأمامـــاً وخلفاً ، فكان لهذا المشهدِ البطولي الرائعِ أثرُهُ في رفعِ معنوياتِ المسلمين ، وخفضِ معنويات الرومِ الذين لم يصدقوا ما يـــرون وما تقعُ عليه أبصارُهم ، وما يلمسونه من شجاعةِ المســـلمين وتضحياهم الفائقة والمبهرة .

ذلكم هو المقدادُ بنُ الأسودِ ﷺ وأرضاه الذي عُرِفَ بين جميع أصحابِ رسولِ الله ﷺ بأنه ﴿ أولُ مَنْ عدا به فرسُهُ في سبيلِ الله ﴾ . والذي : وقف نفسَهُ للجهادِ في سبيلِ وقال : لأموتَنَّ ، والإسلامُ عزيزٌ . والذي قال عنه عبدُ الله بنُ مسعودٍ ﷺ : لقد شهدتُ من المقدادِ مشهداً لأنْ أكونَ صاحبَهُ أحبُّ إليّ مما في الأرضِ جميعاً .

وهو صاحبُ الموقفِ البطولي الرائع ، والكلمةِ الجريئةِ الخالدةِ يومَ أقبلَتْ قريشٌ في بأسِها الشديد ، وإصرارِها العنيد، بحدِّها وحديدِها ، بفخرِها وخيلائِها ، بصلفِها وكبريائِها تحادُّ اللهَ ورسولَهُ .

في ذلك اليومِ كان للمقدادِ موقفٌ بطوليٌّ رائعٌ ومشهودٌ لا يقلُّ عن موقفِهِ هذا بطولةً وفداءً ، وتضحيةً وإباءً ، يومَ قال للنبي ﷺ يومَ بدرٍ :

يا رسولَ الله ، امضِ لما أراكَ اللهُ ، فنحنُ معك . واللهِ لا نقولُ لك كما قالَتْ بنو إسرائيلَ لموسى : اذهب أنت وربُّكَ فقاتلا ، إنّا ههنا قاعدون .

بل نقولُ لكَ : اذهبْ أنتَ وربُّكَ فقاتلا إنّــا معكمــا مقاتلون .

والذي بعثَكَ بالحقِ ، لو سرتَ بنا إلى برك الغمـــاد [1] لجالدنا معك من دونهِ حتى تبلُغَهُ ، ولنقاتلَنَّ عن يمينكَ، وعــن يسارِكَ ، وبين يديكَ ، ومن خلفِكَ حتى يفتحَ اللهُ لك .

مشهدٌ بطوليٌ رائعٌ ، ولوحةٌ صادقةٌ أخاذةٌ لم يسبِقْ لهــا مثيلٌ في ضربِ أروعِ الأمثلةِ في الصدقِ والثباتِ ، والشـجاعةِ والإخلاصِ .

٢- الزبيرُ بنُ العوامِ ﷺ :

وكان أفضلَ صحابي يومئذٍ ، وهو الذي قال عنه رسولُ الله ﷺ : إنّ لكلِ نبيٍّ حوارياً ، وحواريي الزبيرُ بنُ العوامِ .

وهو الذي كان فارساً مغواراً ، وبطلاً مقداماً منذ صبـاهُ وشبابِهِ، حتى لقد رويَ أن أولَ سيفٍ امتُشِقَ في الإسلامِ كـان سيفَ الزبيرِ بنِ العوامِ .

---

[1] برك الغماد : موضع بناحية اليمن .

وهو الذي تحدّث عنه بعضهم ، فقال :

صحبتُ الزبيرَ بنَ العوّامِ في بعضِ أسفارِه ورأيتُ جسدَهُ، فرأيتُهُ مُجَدّعاً[1] بالسيوف ، وإن في صدرِه لأمثالَ العيونِ الغائرةِ من الطعن والرمي فقلت له : واللهِ لقد شهدتُ بجسمِكَ ما لم أرَهُ بأحدٍ قطُّ .

فقال لي : أما واللهِ ما منها جراحةٌ إلا مع رسولِ الله ﷺ، وفي سبيلِ اللهِ .

وهاهو ذا الآن يوم اليرموك وقد أضحى وحدَهُ جيشاً كاملاً ، وقد حمل على جموعِ الرومِ المحتشدةِ كالجبالِ ، ونادى بأعلى صوتِهِ : الله أكبر ، ثم اخترق تلك الجموعَ الزاحفةَ وحدَهُ، وهو يضرب بسيفِهِ يميناً وشمالاً حتى انتهى إلى آخرِ جيشِ الروم ، ثم قفل راجعاً وسط الجموعِ المحتشدة ذاتها ، وسيفُهُ يتوهّج في يمينهِ لا يكبو ، ولا يخبو ، بل نزل على الرومِ كالصاعقةِ يحصدُ جموعَهم حصداً ، ويقطفُ رؤوسَهم بسيفِهِ قطفاً .

---

(1) المجدع : المقطع .

وبينما هو كذلك ! إذ تقدم إليه نفرٌ من الأبطالِ فقالوا: ألا تحملُ معنا على العدوِ فنحملَ معك .. ؟

فقال لهم : إنكم لا تثبتون .

قالوا : بلى .

فحمل على الرومِ ومضى يخترقُ صفوفَهم ، فحمل المسلمون معه ، فلما رأوا صفوفَ الرومِ أحجموا ، وكان الزبير رضي الله عنه قد اخترق صفوفَ الرومِ حتى خرج من الجانبِ الآخرِ، وعاد إلى أصحابِهِ ، ثم فعل ذلك مرةً ومراتٍ ، ولم يُصَبْ يومئذٍ سوى بجرحين بين كتفيه ، رضي الله عنه وأرضاه .

٣- عكرمةُ بنُ أبي جهل رضي الله عنه:

الذي قال يومئذٍ : قاتلتُ رسولَ اللهِ ﷺ في مواطِنَ وأفرُّ منكمُ اليومَ ..؟

ثم أخذ يحرّض الناسَ على الشجاعةِ والاستقبالِ ، ونادى: مَنْ يبايعُ على الموتِ ..؟ فاستجاب له نفرٌ من المخلصين ، منهم عمُّهُ الحارثُ بنُ هشامٍ ، وضِرارُ بنُ الأزور ومعهم أربعمئةٍ من المقاتلين الشجعانِ فبايعوه على الموتِ

وانطلقوا بين جموع الرومِ يضربون أروعَ الأمثلةِ في الشجاعةِ والإقدامِ حتى أثبتَهُمُ الجراحُ، وقُتِلَ عددٌ منهم ممن بايعوا على الموتِ ، ﷺ وأرضاهم ، ﴿ إنَّ اللّهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيلِ الله فيقتلُون ويُقتَلون وعداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ ومَنْ أوفى بعهدِهِ من اللهِ فاستبشروا ببيعكمُ الذي بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيم ﴾ [1]

فما أعظمَ هذا التبايُع .. !! وما أجلّ خَطَرَهُ .. !! فإن اللّهَ عزَّ وجلَّ هو المشتري . و الثمنُ جناتُ النعيمِ ، والفوزُ بالرضوانِ العميم ، ونَيلُ رحمةِ ربِ العالمين ، وذلك هو الفوزُ العظيم .

٤- رجلٌ مجهولٌ ﷺ :

وهو الذي جاء إلى أبي عبيدةَ ﷺ ، والمعركةُ على أشُدِّها قويةً ضاريةً فقال : يا أبا عبيدةَ ، إني قد هيأتُ للاستشهادِ فهل لك من حاجةٍ إلى رسولِ الله ﷺ .. ؟

[1] الآية ١١١ من سورة التوبة .

قال : نعم ، تقرئُهُ عني السلامَ وتقولُ : يا رسولَ الله ، إنا قد وجَدْنا ما وَعَدَنا ربُنا حقاً .

ثم اندفع في أرضِ المعركةِ فقاتَلَ القومَ حتى قتل ﷺ وأرضاه . وحمل خالدُ بنُ الوليدِ ﷺ ومِنْ معه من الفرسان على جنودِ الروم حملةَ رجلٍ واحدٍ فقتلوا منهم عدداً كبيراً لا يُحصى. وثبت كلُّ فريقٍ في وجهِ الآخرِ، وصمدوا في أماكِنِهم، ورفعوا راياهم ، وجعلتِ الرومُ تدورُ كما تدورُ الرَّحا ، فلم تَرَ يومئذٍ إلا مخاً ساقطاً ، ومعصماً نادراً ، وكفاً طائرةً في ذلك الموطنِ .

٥- معاذُ بنُ جبلٍ ﷺ :

في هذا الجو الساخنِ ، والمعركةُ على أشُدِها قويةً حاميةً ضاريةً انطلق معاذُ بنُ جبلٍ ﷺ، وقد رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو ربَّه عزَّ وجلَّ ويقولُ : اللهم زلزلْ أقدامَهم ، وأرهِبْ قلوبَهم ، وأنزِلْ علينا السكينةَ ، وألزِمْنا كلمةَ التقوى، وحببْ إلينا اللقاءَ ، وأرضِنا بالقضاءِ.

واستمرَّتِ المعركةُ بين الطرفين ، وتنازلَ الأبطالُ ، وتبارزَ الفرسانُ ، وحميتِ الحربُ ، وقامتْ على ساقٍ، وخرج قائدُ ميسرةِ الرومِ فحمل بِمنْ معه من الفرسانِ على ميمنةِ المسلمين حتى تغلَّبَ عليهم ، وجعلهم يغادرون أماكنَهم ، وهرب مَنْ هربَ منهم ، ثم تنادَوا فتراجعوا وحملوا على الروم وشدُّوا عليهم شدة رجلٍ واحدٍ حتى أزالوهم عن مواقعهم لتعودَ الكرةُ للمسلمين ، وتدورَ الدائرةُ على الكافرين .

وكانت نساءُ المسلمين قد استقبلْن مَنْ هرب ، وجعلْنَ يضرْبنَهم بالخشبِ ويرمينَهم بالحجارةِ ، ويرفعْنَ السيوفَ في وجوهِهم ، ويوبخْنَهم على الفرارِ من وجهِ العدوِ ، وقالتْ خولةُ بنتُ ثعلبةَ رضي الله عنها ، وهي التي أنزل الله عز وجلّ فيها قولَهُ : ﴿ قد سمِعَ اللهُ قولَ التي تجادِلُكَ في زوجِها وتشتكي إلى اللهِ واللهُ يسمعُ تحاورَكما إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ ﴾ [1].

[1] الآية ١ من سورة المجادلة .

فجعَلتْ تنادي الفارّين تقول :

ياهارباً عن نسوةٍ نقيّات فعن قليلٍ ماترى سبيّاتْ
ولا حصينات ولا رضيّاتٍ

فلما سمع الفارّون كلامَها خجلوا من أنفسهِم ، واستحيوا من النساءِ ، فرجعوا إلى مواقِعهِم يقاتلون بكل صدقٍ وإخلاص نيةٍ ، ولم يتخلّفْ منهم أحدٌ .

وكأنَّ الله عز وجلّ جعل الدائرةَ عليهم لفترةٍ وجيزةٍ لأمرٍ يريده ، وهو الكشفُ والتمحيصُ ، والامتحانُ والتمييزُ، كما امتحنهم يومَ أُحُدٍ ، ومحّصَ قلوبَهم ، ثم أنزل قولَهُ على قلبِ النبي ﷺ : ﴿ وليبتليَ الله ما في صدورِكم وليمحِّصَ ما في قلوبِكم والله عليمٌ بذاتِ الصدور ﴾ [1] صدق الله العظيم .

فلما رأى خالدٌ ﷺ تراجعَ بعضِ فرسانهِ حمل على ميسرةِ الرومِ التي حملَتْ على ميمنةِ المسلمين، وقتل منهم عدداً كبيراً حتى أزالهم هو ومَنْ معه من فرسانِ المسلمين ،

---

(١) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

وقد رويَ أنه قتل في حملتِهِ تلك ستةَ آلافٍ بين فارسٍ وراجلٍ (١) ثم قال لأصحابِهِ: والذي نفسي بيدِهِ لم يبقَ عندهم من الصبرِ والجَلَدِ غيرُ ما رأيتم وإني لأرجو أن يمنحَكُمُ الله أكتافَهم .

ثم انقضَّ على الرومِ فحمل عليهم بمئةِ فارسٍ معه على نحوٍ من مئةِ ألفٍ ، فما وصل إليهم حتى انفضَّ جمعهم ، فحمل عليهمُ المسلمون حملةَ رجلٍ واحدٍ ، فهربوا أمامهم فتبعَهُمُ المسلمون لا يمتنعون منهم .

وكان القيقلانُ ، وهو أحدُ قادةِ الرومِ قد وقف مع عددٍ من أشرافِ قومِهِ من الرومِ وقالوا : إذا لم نقدِرْ على نصرِ دينِ النصرانية فلْنُمتْ على دينِهم . فانقضَّ عليهمُ المسلمون فقتلوهم عن آخِرِهم .

وثبت المسلمون ثباتاً مشرفاً ، وقاتلوا قتالاً عظيماً ، وأبلَوا بلاءً حسناً ، وقال أبو سفيانَ لابنِهِ يزيد وهو يعظُهُ ، ويحثُهُ على القتال :

---

(١) الراجل : للماشي على رجليه وليس له فرسٌ يركَبُهُ ، الجمع : رجال .

يا بُنيَّ ، عليك بتقوى الله والصبرِ ، فإنه ليس رجلٌ بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتالِ ، فكيف بك وبأشباهكَ الذين وُلّوا أمورَ المسلمين .. ؟ ..!! أولئك أحقُ الناسِ بالصبرِ والنصيحةِ .

فاتقِ الله يا بُنيَّ ، ولا يكونَنَّ أحدٌ من أصحابكَ بأرغبَ في الأجرِ والصبرِ في الحربِ ، ولا أجَر أعلى عدو الإسلامِ منك .

فرَدَّ عليه ابنُهُ يزيدُ قائلاً : أفعلُ إن شاء اللهُ ، وانطلق وسطَ صفوفِ الرومِ وراح يقاتلُ قتالاً شديداً رضي الله عنه وأرضاه .

وقال سعيدُ بنُ المسيّب عن أبيه قال : هدأت الأصواتُ يومَ اليرموك، فسمعنا صوتاً يَكادُ يملأُ العسكر يقولُ : يا نصرَ اللهِ اقترِبْ ، الثباتَ .. الثباتَ يا معشرَ المسلمين . قال : فنظرنا فإذا هو أبو سفيانَ تحت رايةِ ابنهِ يزيدَ .

وقاتَلتْ يومئذٍ نساءُ المسلمين قتالاً شديداً ، وقتلْنَ من الرومِ عدداً كبيراً ، وكُنَّ يضربْنَ مَنْ هرب من المسلمين ويُقلْنَ: أين تذهبون وتدعوننا للعلوجِ .. [1]؟

فإذا زجرْنَهم لا يملكُ أحدٌ نفسَهُ حتى يرجِعَ إلى القتالِ.

لوحةٌ صادقةٌ :

في هذا الموقفِ العصيبِ والمعركةُ قائمةٌ على ساقٍ ، وتحت توهجِ السيوفِ ، وتساقطِ القتلى ، وتواثبِ المنايا ، وتصايح الفرسانِ ، سطّر المسلمون أسمى آياتِ الحبِ والوفاءِ، ورسموا لوحةً رائعةً في النبلِ والإباء ، وضربوا أروعَ الأمثلةِ في التضحيةِ والفداءِ .

ذلك أن بعضَ المسلمين الذين بايعوا يومئذٍ على الموتِ ، أصيبوا في المعركةِ بجروحٍ أثقلتهم ، وأقعدهم عنِ الحركةِ ، فجيءَ إليهم بإناءٍ فيه ماءٌ ، فلمّا قُدِّمَ لأحدِهم قال : أعْطِها لأخٍ لي بجانبي فهو أحوجُ إليها مني.

---

[1] العلجُ : الرجل الضخم من كفار العجم ، والجمع : علوج وأعلاج .

فدفع إليه الماءَ ، فقال له : أعطها لأخٍ لي بجانبي .

فتدافعوها جميعاً وكلٌ واحدٍ منهم يفضلُ أخاه المسلمَ على نفسهِ ، ويؤثره بالماءِ دونه حتى ماتوا جميعاً ، ولم يشربْ واحدٌ منهم من الماءِ قطرةً واحدةً .

فهل سمعنا ، أو قرأنا ، أو رأينا إيثاراً كهذا الإيثار..؟وفداءً كهذا الفداءِ ..؟؟ ووفاءً كهذا الوفاء ..؟؟ ونبلاً وشهامةً ومروءةً وتضحيةً وإباءً مثل هذا النبلِ والشهامةِ والمروءَة والتضحية والإباء .. ؟؟

وهل تستطيعُ الأرضُ أن تحملَ فوقَ ظهرِها نموذجاً عظيماً من هذا الطرازِ من الناسِ .. ؟؟

إنه لو حدث هذا ، ووُجدَ مثلُ هؤلاءِ الرجالِ العظامِ على وجهِ هذه الأرض ، لما بقيَتْ أرضاً ، إنها تصيرُ جنةً ونعيماً، وفردَوساً وملكاً عظيماً ، ذلك الفردَوسُ العظيمُ الذي وعد الرحمنُ عبادَه بالغيبِ إنه كان وعده مأتيّاً . هؤلاءِ همُ الذين استحقوا مدحَ الله تعالى لهم ، وثناءَه عليهم بقولِهِ : ﴿كنتم خيرَ أمةٍ أخرِجَتْ للناسِ تأمرون بالمعروفِ وتنهونَ عنِ

المنكرِ وتؤمنون باللهِ ﴾ (١) وهُمُ الذين أثنى اللهُ عــــز وجــلّ عليهم بقولِهِ :

﴿ للفقراءِ المهاجرين الذين أُخرجوا من ديـــارِهِم وأموالِــهم يبتغون فضلاً من اللهِ ورضواناً وينصرون اللهَ ورسولَهُ أولئــك هُمُ الصادقون . والذين تبوءوا الدارَ والإيمانَ من قبلِهم يحبون مَنْ هاجر إليهم ولا يجدون في صدورِهِم حاجـــةً مما أوتـــوا ويؤثِرون على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومَنْ يُوقَ شُــحَّ نفسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ (٢) صدق الله العظيم .

وفاةُ الصديقِ وعزل خالد :

وبينما كان المقاتلون في جولةِ الحربِ وحومةِ الوغـــى ، والأبطالُ يتصاولون من كل جانبٍ إذ قدم البريدُ من المدينـــةِ فدُفِعَ إلى خالدٍ الذي عجب من مجيئِـــهِ في هـــذه اللحظـــاتِ الحاسمةِ، فقال مستفسراً : ماالخبرُ ..؟

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٨-٩ من سورة الحشر

فأجابه فيما بينه وبينه سراً : إنّ الخليفةَ الصديقَ رضي الله عنه قد تُوُفيَ واستُخلِفَ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه خليفةً للمسلمين، وأنه عزل خالداً عن إمرةِ الجيشِ، واستناب عنه على قيادةِ الجيشِ أبا عبيدة عامرَ بنَ الجراحِ رضي الله عنه.

فأسرَّها خالدٌ في نفسهِ ، ولم يُبدِها للناسِ كي لا تدبَّ الفوضى في صفوفِهم ، ويحصلَ الضعفُ والوهنُ ، فقال لحاملِ البريدِ والناسُ يسمعون: أحسنتَ ، وأخذ منه الكتابَ فوضعه في كنانتِهِ ، وتابع ما كان فيه من تدبير أمرِ الحربِ وتشجيعِ الفرسانِ وكأنَّ شيئاً لم يكنْ فالظرفُ لا يسمحُ بالبكاءِ على موتِ الخليفةِ، وبثِّ الأحزانِ ، والاستجابةِ للعاطفةِ ورقةِ القلب، لأن في هذه المعركة تحديدَ مصيرِ الإسلامِ ، فلو أنه استسلم للحزنِ أو انقاد للعاطفةِ ، أو استجابَ لداعي الشرِ ، وحَرَصَ على مصلحتِهِ الشخصيةِ من النقمةِ على عمرَ الذي سَلَبَ منه الإمارةَ لأضاعَ الخططِ العسكرية التي أعَدّها لتحقيق النصرِ الذي أصبح وشيكاً ، ولهدم بيدِهِ أغلى وأثمنَ وأعظمَ ما يحلُمُ به قائدٌ محنكٌ مثلُ خالدٍ .

لقد رأى خالدٌ ﷺ أن مصلحةَ الإسلامِ هي الأولى ، وهي التي يجبُ أن يكرَّسَ لها كلُّ شيءٍ أما مصلحتُهُ الخاصةُ فليس لها وجودٌ ، وليس لها حسابٌ أمامَ المصلحةِ الكبرى المقدسةِ التي يسعى كلُّ فردٍ من أفرادِ المسلمين لتحقيقها . ويقف نفسَهُ لخدمتِها .

وما كان لمسلمٍ أياً كان في الدولةِ الإسلاميةِ أن يكونَ أنانياً، أو حريصاً على مصلحتِهِ الشخصيةِ دون المصلحةِ العامةِ، وهذا شيٌ معروفٌ وثابتٌ في التشريع الإسلامي، وهو تقديمُ المصلحةِ العامةِ على المصلحةِ الخاصةِ عند التعارضِ، فكيف إذا كان هذا صادراً عن شخصيةٍ عظيمةٍ وقياديةٍ مثل خالدِ بنِ الوليدِ ﷺ ..!!

ورويَ أن كتابَ عزلِ خالدٍ عن إمرةِ الجيشِ جاء أولاً إلى أبي عبيدةَ فكتمه عن خالدٍ حتى انتهتِ المعركةُ. ورويَ أن أبا عبيدةَ لم يخبْر خالداً بأمرِ الكتابِ حتى بعد فتح دمشقَ بنحوٍ من عشرين ليلةٍ ، فقال له خالدٌ : يرحمُكَ اللهُ ، ما منَعَكَ أن تُعلمَني حين جاءكَ ..؟

فقال : إني كرهتُ أن أكسرَ عليكَ حربَكَ .

وما سلطان الدنيا أريدُ ، ولا للدنيا أعملُ ، وما ترى سيصيرُ إلى زوالٍ وانقطاعٍ ، وإنما نحن إخوانٌ ، وما يضرُّ الرجلَ أن يليَهُ أخوه في دينِهِ ودنياه ..!!..؟ وسواءٌ أُرسِلَ الكتابُ إلى خالدٍ أم إلى أبي عبيدةَ ، وكتمه عن الأخير، فإنه تصرفٌ لبقٌ وحكيمٌ ينبئُ عن عظمةِ صاحبِهِ ، وشفافيةِ نفسِهِ ، ونبلِها ووفائِها وإيمانِها الراسخِ العميقِ ، وحبها للآخرين ، وتقديمِ مصلحتِهم على مصلحتِهِ .

أدبٌ كريمٌ ، وخلقٌ عظيمٌ مستَمَدٌّ من أخلاقِ نبيِّ الإسلامِ، وأستاذِ البشريةِ ومعلمِ الناسِ الخيرَ الذي يقولُ : ﴿لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِهِ﴾ [1] .

---

(١) رواه الشيخان ، وأحمد في مسنده ، والترمذي والنسائي وابن ماجه .

فالتزموا هذا الأدبَ ، وتخلّقوا به ، وعملوا به ظاهراً وباطنـاً ، وهُمُ الذين أَدَّبَهَمُ النبيُّ ﷺ فأحسن تأديبَهم ، ورباهم فأحسَـنَ تربيتَهم .

وهُمُ الذين صَقَلَهُمُ الإسلامُ، وهذَّبَتْ أرواحُهُم على مائدةِ القرآنِ، ونهلوا منه والتزموا أوامرَهُ، واجتنبوا نواهيَهُ، ولبسوه ظاهراً وباطناً .

وهُمُ الذين يتلون صباحَ مساءَ قولَ الحقِ تبارك وتعـالى : ﴿ربَنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعـلْ في قلوبِنا غِلاً للذين آمنوا ربَنا إنك رؤوفٌ رحيمٌ﴾ (١)

سببُ عزلِ خالدٍ عن إمرةِ الجيشِ :

كـان لعـمرَ ﷺ وجهةُ نظرٍ خاصـةٌ، وقناعـةٌ معينـةٌ بخـالدٍ ﷺ، فهو يرى فيه التسرعَ ، وعدمَ الصبرِ والأناة ، وهذا في رأي عمرَ يؤدي إلى المخاطرةِ بحياةِ المسلمين وهي ثمينةٌ جداً عند عمرَ، يبدو ذلك واضحاً حين طلب من

(١) الآية ١٠ من سورة الحشر .

الخليفةِ الصديقِ أن يعزلَهُ وقال له : اعزلْهُ ، فـإن في سـيفِهِ رهقاً، أي حدةً وتسرعاً.

كما جاء في كتابه الذي وجَّهَهُ إلى أبي عبيدةَ والذي فيه تأميره على الجيشِ بعد عزلِ خالدٍ قولهُ:

أوصيكَ بتقوى اللهِ الذي يبقى ، ويفنى ما سواه ، الـذي هدانا من الضلالةِ ، وأخرجنا من الظلماتِ إلى النورِ ، وقـد استعملتُك على جند خالدِ بنِ الوليدِ ، فقم بأمرِهِمُ الذي يحقُ عليك .

لا تقدمِ المسلمين هلكةً رجاءَ غنيمـةٍ ، ولا تنـزِلْهم منـزلاً قبل أن تتبيّنه لهم ، وتعلم كيف مأتاه .

ولا تبعثْ سريةً إلا في كنفٍ من الناسِ ، وإياكَ وإلقـاء المسلمين في الهلكةِ ، وقد أبلاكَ بي وأبلاني بك، فغُضَّ بصَـرَكَ عنِ الدنيا ، وألْهِ قلبكَ عنها ، وإياكَ أن تهلكَكَ كما أهلكَـتْ من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعَهم .

إذن فحرصُ عمرَ ﷺ على سلامةِ المسلمين ، وتجنيبُـهمُ المخاطرَ هو الذي دعاه إلى عزلِ خالدٍ .

ولعلَّ أمراً آخرَ هو السببُ في عزلِ خالدٍ ، وهو أن المسلمين تولّدَتْ لديهم قناعةٌ بأن خالداً إن قاد جيشاً كـــان النصـــرُ محققاً لا محالةَ ، فأراد عمرُ ﷺ أن يغيِّر هذه القناعةَ ، ويثبـتَ لهم أن كلَّ مسلمٍ جديرٌ بالقيادة ، وقادرٌ على صناعة النصـر وتحقيقِهِ إن وُجِدَتْ لديه أهليةُ القيادةِ وشروطُها . ولقد فسَّرَ عمرُ ذلك بقولِهِ: إنما عزلتهُ ليعلمَ الناس أن الله نصَرَ الديـنَ ، وأن القوةَ لله جميعاً.

ومع ذلك لم يبخسْهُ حقَّهُ ، ولم يشُكَّ بجدارتهِ وكفاءتِـهِ وأهليتِهِ للقيادة فقال له حين عزله : إنك عليَّ لكريمٌ وإنـك عندي لعزيزٌ، ولن يصلَ إليكَ مني أمرٌ تكرهُهُ بعد ذلك .

وروي أن عمرَ ﷺ قال لعلي بن أبي طالبٍ ﷺ : ندمـتُ على ما كان مني .

وقال : رحم اللهُ خالداً ، لقد كنا نظنُّ به أمـوراً مـا كانَتْ.

وحين بلغه موتُ خالدٍ استرجع [1] وقال : كان واللهِ سَدّاداً لنحورِ العدوِ ، ميمونَ النقيبةِ .

وقال فيه : رحم اللهُ أبا سليمانَ ، ما عند الله خيرٌ له مِمّا كان فيه ، ولقد مات سعيداً ، وعاش حميداً .

كما أن خالداً ﷺ لم يحزنْهُ العزلُ عنِ الإمارةِ ولم يغضبْهُ ، ولم يجعلْهُ يثورُ على عمرَ أو ينقمُ عليه، أو يقومُ بثورةٍ معاديةٍ لنظام عمرَ وحكمِهِ بل اكتفى بقوله : واللهِ ما سَرَّتنا إمارتُكم ، ولا ساءَ نا عزلُكم .

فخالدٌ هو خالدٌ جندي شجاعٌ ، ومجاهدٌ صادقٌ باع نفسَهُ ووقفها في سبيلِ اللهِ ، فهو الذي باع نفسَهُ للهِ ربِ العالمين ، والأمر سيان عنده أكان قائداً أم جندياً عادياً ، وسواءٌ أكان أميراً أم مأموراً ، وسيفُهُ .. هو .. هو لم يتغيّرْ لم يكبُ ، ولم يخبُ ، ولم يكن قاطعاً بتاراً إن كان قائداً ، ولم يصبحْ مثلما مفلولاً إن كان مقوداً، أو جندياً عادياً .

---

(١) استرجع : أي قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ولقد عَبَّرَ عن ذلك حين جمع الجندَ وأخبرهم يعزله وتولية أبي عبيدةَ وقال لهم : بُعِثَ إليكم أمينُ هذه الأمـــةِ ، سمعـــتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : أمينُ هذه الأمةِ ، أبو عبيدةَ بنُ الجراح.

كلماتٌ عظيمةٌ تنبئُ عن عظمةِ قائِلِها ، وطهارةِ روحِـــهِ ، وشفافيةِ نفسِهِ ، فهل بعد هذه الكلماتِ من عظمــــةٍ وأُبَّهـــةٍ وطهارةٍ وصدقٍ وإخلاصٍ ووفاءٍ ..!!

خالدٌ وجرجه :

خرج جرجَةْ وكان أحــــدَ قُــوّادِ الــرومِ وفرســـانِهمُ المعدودين، خرج من بين صفوفِ جنودِهِ وقد بهرتْهُ شـــــجاعةُ خالدٍ وبطولتُهُ الفائقةُ ، فنادى خالداً للمبارزةِ ، فبرز إليه خالدٌ ودنا منه حتى اختلفت أعناقُ فرسيهما ، فقال له جرجَةْ :

يا خالدُ ، أخبرني فاصدُقْني ولا تكذبْني ، فإنَّ الحـــــرَّ لا يكذبُ ، ولا تخادعْني فإن الكريمَ لا يخادعُ .

هل أنزل اللهُ على نبيكم سيفاً من السماءِ فأعطاكه ، فلا تسلُّهُ على أحدٍ إلا هزمتَهُ .. ؟

قال : لا

قال : فبمَ سُمّيتَ سيفَ الله ..؟

قال : إنَّ اللهَ بعث فينا نبيّهُ ، فدعانا ، فنفَرْنا منـــــه ، ونأيْنا (١) عنه جميعاً ، ثم إن بعضَنا صَدَّقَهُ وتابَعَـــهُ ، وبعضَنـــا كذّبه وباعَدَهُ ، فكنتُ فيمن كَذّبَهُ وباعدَه.

ثم إنّ اللهَ أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وبايعناه ، فقال لي : أنتَ سيفٌ من سيوفِ اللهِ سلّه اللهُ على المشركين ، ودعا لي بالنصرِ ، فسُمِّيتُ سيفَ اللهِ بذلك ، فأنا من أشدِّ المسلمين على المشركين .

فقال جرجَهْ : يا خالدُ، إلام تدعون ..؟

قال خالدٌ : إلى شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأنّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، والإقرارِ بما جاء به من عندِ اللهِ عزّ وجلّ .

قال : فَمنْ لم يجبْكُم ..؟

قال : فالجزيَةُ ونمنعُهم .

قال : فإن لم يعْطِها .

قال : نؤذنُهُ بالحربِ ثم نقاتلُهُ .

---

(١) النأي : البعد .

قال : فما منزلة من يجيئكم ويدخل في هذا الأمر اليوم ..؟

قال : منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا وضعيفنا وأولنا وآخرنا .

قال جرجه : فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟

قال : نعم ، وأفضل .

قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ..؟

قال خالد : إنا قبلنا هذا الأمر عنوة ، وبايعنا نبينا وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع.

وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

فقال جرجه : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ..؟

قال : تاللهِ لقد صدقتُكَ ، وإن اللهَ وليٌّ ما سألتَ عنه .

فعند ذلك قلبَ جرجَهْ ترسَهُ وقال لخالدٍ : علّمني الإسلام يا خالدُ..؟

فأخذه خالدٌ إلى فسطاطِهِ فعلّمَهُ الغسلَ والوضوءَ ، ولقّنَهُ الشهادةَ ، وصلى به ركعتين .

بدُء القتالِ مرةً أخرى :

ولم يكدِ القائدُ الروماني يسلمُ على يدِ خالدٍ ويصلي معه ركعتين للهِ ربِ العالمين حتى استأنف الجيشان القتال ، وحمل كلٌّ فريقٍ على الآخرِ فكانتِ الغلبةُ للرومِ الذين استطاعوا أن يبعدوا المسلمين عن مواقِعِهم إلا الجهةَ التي كان فيها عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ، وعمُّهُ الحارثُ بنُ هشامٍ ، فقد صمدا مع مَنْ معهما من جنودِ المسلمين حتى دحروا الروم وأزالوهم .

فانقضّ خالدٌ وجرجَهْ ، وتنادى المسلمون ، وشدّوا على الروم حتى هزموهم وانطلق خالدٌ وجرجه يقودان المسلمين من لدن شروقِ الشمسِ حتى مالَتْ للغروب ، وصلى المسلمون يومئذٍ صلاتيَ الظهرِ والعصرِ إيماءً ، وأنزل اللهُ عليهم نصرَهُ

وفتح عليهم ، وأمَدَّهم بالصبرِ والقوةِ حتى دحروا أعداءهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وهربَ فرسانُهم ، وتفرقوا في الأرضِ ، وتبعهمُ المسلمون في قلبِ الصحراءِ .وقد ركبوا أكتافهم ، وأنزلوا بهم القتلَ والتشريدَ ، وكان خالدٌ قدِ اقتحم على الخيالةِ أماكنَهم حتى تراكمتِ القتلى أمامَهُ كأنهم جدارٌ قد هُدِمَ .ثم مالَ بِمَنْ معه من الأبطالِ على الذين لجؤوا إلى الخندقِ ، فاقتحم عليهم خندقَهم ، وأمر المسلمين أن يؤخروا صلاة المغربِ، فلما خيَّمَ الظلامُ انقضَّ عليهم بجنودهِ الشجعان، وكان الروم قد أخذوا مواقعَهم ناحيةَ وادي اليرموك كما تقدم ، والمسلمون في الجهة الأخرى حيثُ المجالُ واسعٌ لتلقي البُرُدِ والمدد.

فلمّا دارتِ الدائرةُ على الرومِ وهربوا ، تبعَهمُ المسلمون كالسيل الجارفِ ، فجعل الذين تسلسلوا بالحديدِ ، وقُيِّدَ بعضُهم ببعضٍ إذا سقط واحدٌ منهم سقط الذين معه ، وكان هذا من فضلِ الله تعالى على عبادِهِ المؤمنين ، ومن حسنِ حظِهِم أن طبيعة الأرضِ كانت عاملاً مساعداً جداً لهم .

حتى لقد روى الطبريُّ أنه سقط يومئذٍ في وادي اليرموك من الرومِ مئةُ ألفٍ وعشرون ألفاً سِوى مَنْ قُتِلَ في المعركة بينما قُتِلَ من المسلمين ثلاثةُ آلافٍ منهم كما قال ، عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ، وسلمةُ بنُ هشامٍ ، وعمرو بنُ سعيدٍ ، وأبانُ بن سعيدٍ ، وضرارُ بنُ الأزورِ ، وهشامُ بنُ العاص ، وعمروُ بنُ الطفيلِ بنِ عمروٍ الدَّوسيُّ .

واختلفتِ الرواياتُ حولَ خالد بنِ سعيدٍ ، فقيل استشهدَ يومئذٍ ، وقيل أثبتتهُ الجراحُ فلا يعلم أحدٌ عنه أين ذهب ، وقيل : إن الذي قُتِلَ يومئذٍ ابنُهُ أما هو فقد قُتِلَ في معركةِ مرجِ الصفّر كما تقدم واللهُ أعلم .

ورويَ أن عمروَ بنَ العاصي هرب يومئذٍ ومعه أربعةٌ حتى وصلوا إلى النساءِ في مؤخرةِ الجيشِ ثم رجعوا خجلاً منهنَّ حين زجرْنَهم .

وانكشف شُرَحبيلُ بنُ حسنةَ وأصحابُهُ ، ثم رجعوا إلى أرضِ المعركةِ حين سمعوا الأميرَ يُعظُهُم ويقول : ﴿ إنَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنةَ يقاتلون في

سبيلِ اللهِ فيقتُلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآن ومَنْ أوفى بعهدِهِ من اللهِ فاستبشروا ببيعكُمُ الـــذي بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيمُ ﴾ [1] .

واستُشهِدَ يومئذٍ جرجه رضي الله عنه وهو الذي لم يُصلِّ للهِ تعالى سوى تلكمُ الركعتين اللتين صلاهُما مع خالدٍ رضي الله عنه في خيمتِهِ .

نتائجها :

وقُتِلَ يومئذٍ أكثرُ من ثلثي جيشِ الرومِ ، ومنهم قادتُــهم وخيرةُ فرسانهم ، كما قُتِلَ تدارقُ أو تيودوريك. أخو هرقلَ ، وكان القائد العامّ للجيشِ الروماني .

وما ذكرَهُ بعضُهم من أن جرجــه حين أسلم على يـــدِ خالدٍ رضي الله عنه غادر خيمةَ خالدٍ ، وذهب إلى جيشِـــهِ الرومــاني فأخذ يخوفُهم ، ويثبطُ هَممهم ويقولُ لهم إن جيشَ المســـلمين كبيرٌ جداً يفوقُ عددَ الرومِ الأمرُ الـــذي أوقــع في قلوبهـــمُ الرعبَ، فكانت هذه الدعايةُ سبباً لهزيمتهم ونصر المسلمين .

---

[1] الآية ١١١ من سورة التوبة .

هذا كلامٌ غيرُ صحيحٍ ولم يذكرْهُ أحدٌ ، ولم يـــرِدْ في أي مصدرٍ تاريخيٍّ موثوقٍ ، إنما هو من وضع بعضِ المستشـرقين أو الناقمين على الإسلام والمسلمين ، للتشكيكِ بكفاءة القيـــادة الإسلاميةِ ، وعدمِ استطاعةِ المسلمين الصمودَ أمام الرومِ فضلاً عنِ الانتصارِ عليهم ، لولا خيانةُ جرجه، وتزييـــفُ الحقـــائقِ حول عددِ جيشِ المسلمين، كما يزعمون .

وقد علمنا كما تقدم أن جرجه رحمه الله تعالى لم يذهَـــبْ إلى الرومِ بعد لقائِهِ مع خالدٍ وإسلامِهِ ، بل ولم يغادرْ خيمـــةَ خالدٍ، وفوجئَ بتجديد القتالِ بين الطرفين ولم يكنْ له علـــمٌ بذلك ، ثم خرج يقاتلُ مع خالدٍ جنباً إلى جنبٍ حتى قُتِلَ رحمه الله تعالى ورضي عنه وأدخله فسيحَ جناتِهِ ، فمِنْ أين ذهب إلى قومِهِ .. ؟ وكيف وصل إليهم ونقل لهم معلومـــاتٍ مزيفـــةً ومغلوطةً ..؟

سبحانك .. هذا بهتانٌ عظيمٌ .

﴿كَبُـرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواهِهِـم إن يقولـون إلاّ كـذباً﴾ [1]

كنا طحٍ صخرةً يوماً ليوهنَها فلم يضُرْها وأوهي قرنَهُ الـوعلُ

مطاردةُ الرومِ :

أنزل اللهُ عز وجل نصرَهُ على عباده ، وفتـح عليـهم ونصرهم على عدوهم ، فكان نصراً مؤزّراً ، وفتحاً عظيمـاً ، وأذلَّ اللهُ الرومَ ، وكسَرَ شوكتَهم ، وقضى على غطرستِهِم ، وأوقع فيهم شَرَّ هزيمةٍ ، وسقطوا في وادي الـيرموك كتـلاً متراكمةً، وهُمُ الذين اختاروا تلك البقعةَ وجعلوهـا موقعـاً عسكرياً لهم ، ثم لتتحولَ إلى مقبرةٍ أبديةٍ لهم بتقديرٍ مـن اللهِ العزيزِ الحكيم .

وهَرَبَ مَنْ هَرَبَ منهم على غيرِ هدىً طالباً النجـاةَ ، فتبعهم خالدٌ ﷺ بجنودهِ البواسِلِ حتى وصـل إلى دمشـقَ ، فخرج إليه أهلُها وقالوا : نحنُ على عهدِنا وصلحِنا ..؟

(١) الآية ٥ من سورة الكهف .

قال : نعم .

ثم لحق بهم إلى ثنيةِ العقابِ فقتل منهم عدداً كبيراً ، وهم لا يزالون فارّين أمامَهُ كالإبلِ الشاردةِ في الليلةِ المطيرةِ حتى انتهوا إلى حمصَ والمسلمون في آثارِهِم يقتلون ويأسرون ويغنمون ، وكان مِلكَهُم هرقلُ في حمصَ، فغادرها وارتحل عنها، وجعلها بينه وبين المسلمين ، وقال أما الشامُ فلا سلمَ ، وويلٌ للرومِ من المولودِ المشؤومِ.

ثم انتهى به المطافُ إلى أنطاكية حيثُ استقرَّ فيها ، ثم جمع جنودَهُ وفرسانَهُ ومستشاريه ، وأخذ يلومُهم على تخاذلِهم، ويوبخُهم على فرارِهم أمام المسلمين مع الفارقِ الكبيرِ في العددِ والعدةِ والاستعدادِ والتسليحِ.

فقال لهم : ويلكم ، أخبروني عن هؤلاءِ القومِ الذين يقاتلونكم ، أليسوا بشراً مثلكم ..؟

قالوا : بلى .

قال : فأنتم أكثرُ أم هم ..؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كلِ موطِنٍ .

قال : فما بالُكم تنهزمون ..؟

قالوا : من أجلِ أنهم يقومون الليلَ ، ويصومون النهارَ ، ويوفون بالعهدِ ، ويأمرون بالمعروفِ ، وينهون عنِ المنكــــرِ ، ويتناصفون بينهم .

ومن أجلِ أنا نشربُ الخمرَ ، ونزني ، ونركبُ الحــرامَ ، وننقضُ العهدَ ، ونغصبُ ونظلمُ ، ونأمرُ بالسخطِ ، وننــــهى عمّا يُرضي اللهَ ونفسدُ في الأرضِ .

فقال هرقلُ : أما أنتَ فقد صدقتَني .

ولقد صدق ذلك الروماني ، فقد عرف تماماً صفـــــات المسلمين ومعاملاتِهم وأخلاقَهم وسلوكهم ، وعبَّرَ عنها تعبيراً صادقاً ، وكأنه يعيشُ معهم ويعاملُهم وكأنه فردٌ منهم يعلـــمُ عنهم كلَّ شيءٍ .

ما قيل في يومِ اليرموك من الشعرِ :

ولقد خلَّدَ الشعراءُ معركـــــةَ الـيرموكِ ، وذكروهـــا بأشعارِهم لتبقى خالدةً تشهدُ بعظمةِ الإســــلامِ والمســـلمين ،

وصدقِ الرجالِ الذين صدقوا ما عاهدوا اللهَ عليه ، وإخلاصِهِم في الجهادِ في سبيلِ اللهِ ، وتفانيهم في الدفاعِ عن عقيدتِهِم ومقدساتِهِم ؟

ولقد تسابق الشعراءُ في ذلك ، نذكرُ منهم :

١- القعقاعَ بنَ عمروٍ ﷺ الذي قال يومئذٍ :

ألم ترَنا على اليرموكِ فُزنا كما فُزنا بأيامِ العراقِ
وعذراءَ المدائنِ قد فتحنا ومرجَ الصفّرِ الذهبِ العتاقِ
فتحنا قبلها بصرى وكانَتْ محرمةَ الجنابِ لدى النعاقِ
قتلنا مَنْ أقام لنا وفينا نهابُهمُ بأسيافٍ رقاقِ
قتلنا الرومَ حتى ما تساوى على اليرموكِ معروقُ الوراقِ
فضَضنا جمعَهم لمّا استجالوا على الواقوصِ بالبتر الرقاقِ
غداة تهافتوا فيها فصاروا إلى أمرٍ يعضّلُ بالذواقِ

وقال الأسودُ بنُ مقرنٍ التميميُّ :

وكم قد أغرنا غارةً بعد غارةٍ يوماً ويوماً قد كشفنا أهاولَهُ
ولولا رجالٌ كان عشوَ غنيمةٍ لدى مأقطٍ رَجّتْ علينا أوائلُهُ

لقيناهُمُ اليرموكَ لما تضايقَتْ بمَنْ حلَّ باليرموكِ منهُ حمائلُهْ

فلا يعد من منا هرقل كتائبا إذا راقها رام الذي لا يحاوله

وقال عمرو بن العاص :

القوم لخم وجذام في الحرب ونحن والروم بمرج نضطرب

فإن يعودوا فيها لا نصطحب بل نعصب الفرار بالضرب الكرب

الخاتمة :

وصدقوا فيما قالوا ، فلقد كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم عدو ، ولا يقف أمامهم فواق ناقة عند اللقاء ، ولقد قال رسول الله ﷺ : نصرت بالرعب مسيرة شهر .. الحديث، فهو مؤيد بتأييد الله تعالى ، ومقلد بنصره ، ومحفوظ بحفظ الله ورعايته وهو الذي خاطبه الله تبارك وتعالى بقوله : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ (١)

(١) الآية ٤٨ من سورة الطور .

وكذلك أصحابُهُ ﷺ وأرضاهم الذين تبعـــوا ســنّتهُ ، واقتفوا آثارَهُ ، وأحيَوا طريقَتهُ ، ففازوا برضوانِ اللهِ تعـــالى ، ونالوا نصرَهُ وتأييدَهُ مصداقاً لقولِ الحقِ تبارك وتعالى :

﴿ولقد سبقَتْ كلمتُنا لعبادِنا المرسَـــلين ، إنهـــم لهُـــمُ المنصورون، وإن جُندَنا لهُمُ الغالبون ﴾ [1]

﴿إنا لننصرُ رسلَنا والذين آمنوا في الحياةِ الدنيا ويومَ يقــومُ الأشهادُ ﴾ [2]﴿ وعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعمِلوا الصالحاتِ ليستخلِفنَّهم في الأرضِ كما استخلَفَ الذيـــنَ مـــن قبلِـــهِم وليمكِنَنَّ لهم دينَهُمُ الذي ارتضى لهم وليبّدِلَنَّهم مـــــن بعـــدِ خوفِهِم أمناً ﴾[3].

﴿ ولقد كتبنا في الزبورِ من بعدِ الذكرِ أنّ الأرضَ يرثُـــــها عباديَ الصالحون ﴾ [4]

---

[1] الآيات ١٧١ ـــ ١٧٣ من سورة الصافات .

[2] الآية ٥١ من سورة غافر

[3] الآية ٥٥ من سورة النور

[4] الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

وفي ذلك يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ :

﴿إذا هَلَكَ قيصرُ، فلا قيصرَ بعدَهُ ، وإذا هلك كسرى ، فلا كسرى بعده ، والذي نفسي بيدِهِ لتُنفُقَنَّ كنوزُهما في سبيلِ اللهِ﴾.

أو كما قال ، ولقد صدق رسولُ الله ﷺ فلقد حدث كما قال وهو الصادقُ المصدوقُ الذي لا ينطقُ عنِ الهوى . إن هو إلا وحيٌّ يوحى .

تمتِ الرسالة والحمد لله رب العالمين
وإلى اللقاء مع معركةٍ إسلاميةٍ خالدةٍ أخرى

الفهرس

معارك عربيّة خالدة

٩

مَعركةُ الجِسرِ

إعداد

عبد القادر الشيخ ابراهيم

مراجعة

أحمد عبد الله فرهود

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 - 1420 هـ 2000 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب: 78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(معركةُ الجسرِ)

وقَعَتْ معركةُ الجسرِ بين المسلمين و الفرسِ في شهرِ شعبانَ سنةَ ثلاثَ عشرةَ من هجرةِ النبي صلى الله عليه و سلم ، في عهدِ الخليفةِ الراشدي الثاني ، عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه .

فقد كان الخليفةُ الأولُ أبو بكرٍ الصديقُ رضي اللهُ عنه قدِ امتثلَ أمرَ اللهِ تباركَ و تعالى الذي يتضمَّنُ الأمرَ بقتالِ مَنْ يلي دولةَ الإسلامِ ، و ذلك بقولِهِ تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا قاتِلوا الذين يلونكم مِنَ الكفارِ ولْيجدِوا فيكم غلظةً و اعلموا أنَّ اللهَ مع المتقين)** (١) و بقولِهِ تعالى : **(قاتلوا الذين لا يؤمنون باللهِ و لا باليومِ الآخرِ و لا يحرمون ماَ حرَّم اللهُ و رسولُهُ و لا يَدينون دينَ الحق مِنَ الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا**

---

(١)الآية ١٢٣ من سورة التوبة .

الجزيةَ عنْ يدٍ و هُمْ صاغرون) [1] صدق الله العظيم .

و المرادُ من الآيتينِ الكريمتينِ الأمرُ بقتالِ الفرسِ و الرومِ ، فهما الدولتان العُظميان اللتان تتقاسمان السيادةَ في الأرض ، و تشكلان القوة الضاربة فيها ، كما أنهما تحتلان الأرضَ العربيةَ ، و تجاوران دولةَ الإسلامِ .

فالرومُ أهلُ كتابٍ و هُمُ الذين يجاورون المسلمين من جهةِ الشمالِ في أرضِ الشام ، و هُمُ الذين عناهُمُ اللهُ تعالى بقولِهِ : (**و لا يَدينون دينَ الحق من الذين أوتوا الكتابَ)**.... الآية ، وبقولِهِ : (**قاتلوا الذين يلونكم من الكفارِ)** ... الآية و الفرسُ وثنيون يعبدون النارَ ، و هُمُ الذين يجاورون المسلمين من جهةِ الشرقِ والشمالِ الشرقي من أرضِ العراقِ ، و هُمُ الذين عناهُمُ اللهُ تباركَ و تعالى بقولِهِ : (**قاتلوا الذين يلونكم من الكفارِ) (و لْيجدوا فيكم غلظةً)** و يَحسُنُ بنا في هذه المناسبة أن نحددَ معنى الغلظةِ الواردةِ في الآية الكريمةِ ، إنها

(١)الآية ٢٩ من سورة التوبة .

ليستِ الغلظةَ المطلقةَ ، من كلِ قيدٍ و أدبٍ ٠٠٠!!
إنها ليستِ الغلظةَ الظالمةَ و الغاشمةَ ٠٠٠!!
إنها ليستِ الغلظةَ القاسيةَ و الوحشيةَ ٠٠٠!!
إنها ليستِ الغلظةَ المجردةَ من الرحمةِ والإنسانيةِ٠٠٠!!
بل إنها الغلظةُ على الذيـــن مـــن شـــأنِهم أن يحـــاربوا المسلمين و يعتدوا عليهم في بلادِهمِ .
إنها الغلظةُ على الذين يشـــكلون خطـــراً علـــى أمـــنِ المسلمين .
إنها الغلظةُ فـــي الدفـــاعِ عـــن الديـــنِ ، و الأنفـــسِ ، والأعراضِ و الأموالِ .
إنها الغلظةُ على أعداءِ هذا الدينِ و أهلِهِ ، و في الـــتزامِ أحكامِ الجهادِ و آدابِهِ ، و في حدودِ الآداب العامةِ لـــهذا الدينِ الإسلامي العظيم ، تلك الآدابُ التـــي وَرَدَتْ فـــي القرآن الكريم ، ووصايا رســولِ اللهِ صلـــى الله عليـــه وسلم، و خلفائِهِ الراشدين .

(آدابُ الجهاد في)
(الإسلام)

أولاً : آدابُ الجهادِ في القرآن .

وَرَدَتْ في القرآنِ الكريمِ آياتٌ كثـيرةٌ تتضمـنُ أحكامَ الجهادِ ، و تبينُ آدابَهُ و الحكمةَ منه كقولِهِ تعالى:

(وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقاتلونكم و لا تعتـدوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدين . و اقتلوهـم حيـثُ ثقفتموهـم وأخرجوهم مِنْ حيثُ أخرجوكم و الفتنةُ أشدُّ من القتـلِ و لا تقاتلوهم عند المسجدِ الحرامِ حتى يقـاتلوكم فيـه فإن قاتلوكم فاقْتلوهم كذلك جزاءُ الكافرين . فإنِ انتهوا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ . و قاتلوهم حتى لا تكـونَ فتنـةٌ ويكونَ الدينُ للهِ فإنِ انتـهوا فـلا عـدوانَ إلاّ علـى الظالمين . الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ و الحرمـاتُ قصاصٌ فمنِ اعتدى عليكم فاعتدوا عليـه بمثـلِ مـا

اعتــدى عليكــم و اتقــوا اللهَ و اعلمــوا أنّ اللهَ مــع المتقين)[1] صدق الله العظيم .

فهذه الآياتُ الكريمةُ تحملُ بعضَ آدابِ القتــالِ ، وهي قتالُ مَنْ قاتَلَهم أوِ اعتدى عليــهم ، و قتــالُ مــن يقاتِلُهم في أي وقتٍ أو في أي مكانٍ ، و لكــــن بــدونِ اعتداءٍ . (و قاتلوا في سبيلِ اللهِ الذيــن يقــاتلونكم و لا تعتدوا إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدين .) إنه إذن القتالُ فــــي سبيلِ اللهِ دفاعاً عن الأنفسِ و الدينِ و الأرضِ والعرضِ و المالِ .

يقولُ أحدُ الباحثين الإسلاميين :

(إنه القتالُ للهِ ، لا لأي هدفٍ آخرَ من الأهدافِ التــــي عرفتها البشريةُ في حروبِها الطويلةِ ، القتالُ في ســـبيلِ اللهِ ، لا في سبيلِ الأمجادِ و الاستعلاءِ في الأرضِ ، ولا فـــي سبيلِ المغانمِ و المكاسبِ ، و لا في سبيلِ الأسواقِ والخاماتِ ، و لا في سبيلِ تسويدِ طبقةٍ على طبقـــةٍ ، أو جنسٍ على جنسٍ ، إنما هو القتالُ لتلك الأهدافِ المحددةِ

(١)الآيات ١٩٠-١٩٤ من سورة البقرة .

التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام . القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ، و إقرار منهجه في الحياة ، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم ، أو أن يجرفهم الضلال و الفساد ، و ما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام ، و ليس لمن يخوضها أجر عند الله و لا مقام . (و لا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .) و العدوان يكون بتجاوز المحاربين المعتدين إلى غير المحاربين من الآمنين و المسالمين الذين لا يشكلون خطراً على الدعوة الإسلامية ، كالنساء و الأطفال و الشيوخ و العباد المنقطعين للعبادة من أهل كل ملة و دين .

كما يكون بتجاوز آداب القتال التي شرعها الإسلام ، ووضع بها حداً للشناعات التي عرفتها حروب الجاهليات الغابرة و الحاضرة على السواء ، تلك الشناعات التي ينفر منها حس الإسلام ، و تأباها تقوى الإسلام) .

و كقوله تعالى : (أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربُّنا الله) [1]

فهاتان الآيتان أول ما نزل من القرآن بالإذن في القتال ، و كانوا من قبل قد مُنعوا عنه في مكة لحكمة يريدها الله عز و جل رأفة بهم ، و شفقة عليهم حيث كانوا يومئذ قلة . و هم الذين كانوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال فيقول لهم : اصبروا ، فإني لم أومرْ بقتال.

و هم الذين قالوا له يوم العقبة : و الله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا .فيجيبهم الرسول صلى الله عليه و سلم بقوله : لم نؤمَرْ بذلك ، ذلك أن القتال في تلك الفترة كان محرَّماً عليهم بنص قوله تعالى : **(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم وأقيموا الصلاة و آتوا الزكاة)** [2] .

---

(١)الآيتان ٣٩-٤٠ من سورة الحج .

(٢)الآية ٧٧ من سورة النساء .

فلما هاجروا إلى المدينة ، و أصبح لهم جيشٌ و دولة ، و عَدَد و عدَةٌ بحيث يستطيعون مواجهةَ العـــدوان وردَّه والتصدي له ، نزل عليهم الإذن بالقتال بقوله تعالى :

(أُذِن للذين يقـــاتَلون بأنــــهم ظُلمـــوا و إن الله علـــى نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حــق إلّا أن يقولوا ربُّنا الله ..) الآية .

فعلم المؤمنون بأن هذا الإذن هو مقدمة لفرض الجـــهاد عليهم ، و للتمكين لهم في الأرض ، كما وعدهم الحـــقُّ تبارك و تعالى بقوله : **(و إن الله على نصرهم لقدير)** و وعده حق و صدق ، و ثابت لا يتبدل و لا يتغير .

ثانيا : في السنة النبوية المطهرة .

١- عن بريدة رضي الله عنه قال : كـــان رســول الله صلى الله عليه و سلم إذا أمّر الأمير علـــى جيـــش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى و مَنْ معه من المسلمين خيراً ، ثم قال :

(اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، قاتلوا مَنْ كفــر بالله

اغزوا و لا تغلُّوا[1] ، و لا تغدروا ، و لا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال [2] ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، وكفَّ عنهم و ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، و كفَّ عنهم ، ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين ، و أخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، و عليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين ، و لا يكون لهم من الغنيمة و الفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . و إن هم أبوا ، فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم ، و كفَّ عنهم ، فإن أبوا ، فاستعِنْ بالله تعالى عليهم و قاتلهم) [3] .

٢- و عن رجل من جُهينةَ : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال :

---

(١)الغلول : السرقة . (٢) الخلال : الخصال ، و الواحدة : خلة .

(٣)رواه مسلم و أبو داود و الترمذي .

(لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتَّقونكم بأموالهم دون أنفسهم و ذراريهم ، فيصالحونكم على صلح ، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك ، فإنه لا يصلح لكم)[1] .

٣- و عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : **(وُجِدتْ امرأة مقتولة في بعض المغازي ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء و الصبيان)** [2]

٤- و عن العرباض بن سارية قال : نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلعة خيبر ، و معه مَنْ معه من المسلمين ، و كان صاحبُ خيبر رجلاً مارداً متكبراً ، فأقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمَّدُ ، لكم أن تذبحوا حُمَرنا ، و تأكلوا ثمَرَنا ، و تضربوا نساءنا .

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم و قال : يا ابن عوف ، اركب فرسك ، ثم ناد :إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن . و أن اجتمعوا للصلاة .

---

(١)رواه أبو داود . (٢)رواه الشيخان .

فاجتمعوا ، ثم صلى بهم ، ثم قام فقال : أيحسب أحدكم متّكئاً على أريكته ، قد يظن أن الله تعالى لم يحرّمْ شيئاً إلا ما في القرآن ....! ألا و إني قد وعظتُ و أمرت ونهيت عن أشياءَ ، إنها لمثلُ القرآن أو أكثر ، و إن الله لم يُحِلّ لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، و لا ضربَ نسائهم ، و لا أكل ثمارهم ، إذا أعطَوا الذي عليهم .

و بعد فراغه صلى الله عليه وسلم من بعض الغزوات ، رُفع إليه أن صِبْيةً قُتلوا بين الصفوف ، فحزن عليهم حزناً شديداً . فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله ، وهم صبية للمشركين . فغضب النبي صلى الله عليه وسلم و قال : إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم و قتل الأولاد ، إياكم و قتل الأولاد .

ثالثا : في العهد الراشدي

روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يوصي قادة جنده بآداب الجهاد ، و عدم الاعتداء

على العزّلِ من السلاحِ كالنساءِ و الصبيانِ و الشيوخِ ، ويقولُ لهم : (**ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسَهم للهِ ، فدعوهم و ما حبسوا أنفُسَهم له ، و لا تقتلوا امرأةً ، ولا صبياً ، و لا كبيراً هرماً**) [1]

و كذلك كان يفعلُ عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه ملتزماً آداب الجهادِ في الإسلام ، و متَّبعاً سنةَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، و مطبّقاً وصاياهُ . فكان يقولُ لأمراءِ جندِهِ : لا تغلّوا ، و لا تغدروا ، و لا تقتلوا وليداً، و اتقوا اللهَ في الفلاحين .

و من وصاياه رضي الله عنه : (و لا تقتلوا هَرِماً ، و لا امرأةً ، و لا وليداً ، و توقَّوا قتلَهم إذا التقى الزحفان ، و عند شّنِ الغاراتِ)

تلكم هي آدابُ الإسلامِ في الجهادِ ، و تلكم هي أحكامُهُ ووصاياه ، أدبٌ عظيمٌ ، و خُلُقٌ كريمٌ ، و رحمةٌ واسعةٌ، ووصايا نبيلةٌ تشملُ الجميعَ ، و تغمرُ الأعداءَ ، و تحوطُهم بنظرةٍ إنسانيةٍ رحيمةٍ لم توجدْ ، و لن توجَدَ

---

(١)موطأ مالك .

في أي نظامٍ مهما بلغَ من التقدّمِ و التطورِ و الازدهـــارِ والمدنيةِ ، تلك المدنيةُ القائمةُ علـــى الظلـــمِ و القســـوةِ واستغلالِ الشعوبِ الضعيفةِ ، و التسلطِ على رقابِـــها ، والتفريقِ العنصري و العـــرقي بين أبنائِها ، و استخدامِ تطورِها و علومِها لسحقِ الشعوبِ الآمنةِ و المسالمـــةِ ، و الساعيةِ إلى توفيرِ الأمنِ و الراحةِ لأبنائِها ، والقضاءِ على كلِ مظاهرِ التسلّحِ في الأرضِ ، بدعوى أن ذلـــك التسلحَ يشكلُ خطراً على السلامِ العالمي ، في حين تبيحُ لنفسِها التصرفَ في دولِ العالمِ كما تشـــاءُ ، و تعتـــبرُ نفسَها وصياً عليها ، و شرطياً يقومُ بحراستِها و مراقبـــةِ أفعالِها و تصرفاتِها ، و لا تقيمُ وزناً للمجتمعِ الدولـــي ، و لا احتراماً للنظامِ العالمي .

فأيُّ تقدمٍ هذا ... !! و أيُّ تحضـــرٍ ، و أيُّ تطـــورٍ ، وأيةُ مدنيةٍ ...؟؟...!!

إنه تطورٌ قـــائمٌ علـــى الوحشـــيةِ و البربريـــةِ والهمجيةِ، لا يعرفُ معنـــى الرحمـــةِ الإنســـانيةِ ، و لا التسامحِ بين بني البشرِ ، و لا يعبأُ بالعدلِ و الإنصـــافِ

والكرامة لدى بني الإنسان ، في حين يتّهمون الإسلام بأنه يدعو إلى الإرهاب و القتل و العدوان ، و ما نظام الجهاد فيه إلا دليل على ذلك .

(شبهة و الرد عليها) يقولون : إن القرآن فرضَ الجهاد في الإسلام ، و حرّم النفاق في غير موضع منه ، و مع ذلك فقد حثَّ على إكراه الناس على الدخول في الإيمان ، و هذا تناقض ... الخ يقول الدكتور محمد هيكل : (يرفع المستشرقون و المبشرون عقائرهم صائحين : أرأيتم... هذا محمد يدعو دينُه إلى الحرب و إلى الجهاد في سبيل الله ، أي إلى إكراه الناس بالسيف على الدخول بالإسلام ، أليس هذا التعصّب بعينه ...!

و هذا في حين تنكر المسيحية القتال ، و تمقت الحروب، و تدعو إلى السلام ، و تنادي بالتسامح ، و تربط بين الناس برابطة الإخاء في الله وفي السيد المسيح)(١)

---

(١)حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل .

و هم في دعواهم هذه قد كذبوا على الله مرتين ، إذ تتضمن دعواهم هذه .

أولا : أن الإسلام لا يدعو إلى السلام و التسامح و الإخاء ، و قد كذبوا ، فالمسيحية كالإسلام كلاهما دين الله ، و الإسلام يدعو إلى التسامح و السلام و الإخاء في الله . و لكن إلى أي حد هذا السلام و التسامح والإخاء....؟؟؟ إن الذي يضع الحدَّ لذلك إنما هو الداعي للسلام والتسامح و الإخاء ، هو اللهُ تعالى الرحمن الرحيم السلام.

و تتضمن دعواهم هذه **ثانيا** : أن المسيحية لا تدعو إلى قتال المشركين ، و قد كذبوا ، فالسيد المسيح عليه السلام يقول : لا تظنوا أني جئت لألقيَ سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقي سلاما ، بل سيفا ، فإني جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه ، و الابن ضد أبيه .... إلى

أن قال في الحثّ على القتالِ : و مَنْ أضاعَ حياتَهُ من أجلي يجدُها .[1]

تلك فِريةٌ تبعَها غيرُها من فِرىً اصطنعها هؤلاء المستشرقون و المبشرون يكيدون للإسلامِ ، و يحاولون بها تغريرَ ضعافِ العقولِ [2]

و تلك شبهةٌ من شبهاتٍ كثيرةٍ أوردوها لطعنِ الإسلامِ والنيلِ منه ، و هي من الضعفِ بحيثُ تكادُ تتهاوى أمام صدق الإسلام و نزاهته و طهارته و سماحته و دعوته الحارة إلى التسامح والإخاء بين جميع الشعوب .

و الدعوةُ إلى الجهادِ التي جاء بها الإسلامُ ، جاءَتْ بها جميعُ الأديانِ السماويةِ و قد تقدَّمَ نصُّ الإنجيلِ الذي يقولُ فيه السيدُ المسيحُ عليه السلام : (ما

(١)إنجيل متى الإصحاح العاشر . (٢) فلسفة البلاء للدكتور الحسيني ابو فرحة

الإنجيل الذي يقول فيه السيد المسيح عليه السلام : (ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً ، إلى أن قال : و من أضاع حياته من أجلي يجدها) ، ففيه الحث على القتال والاستشهاد في سبيل الله ، و هو بمعنى قوله تعالى : **(ولا تحسَبَنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون)** (١)

---

(١)الآية ١٦٩ من سورة آل عمران

و جاء في التوراة :

(حين تقرب من مدينة لكي تحاربـَـها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح و فتحتْ لك فكلُّ الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ، و يستعبد لك ، و إن لم تسالمْك بل عملت معك حرباً فحاصرْها ، و إذا دفعها الرب إلهُك إلى يدك ، فاضربْ جميعَ ذكورِها بحد السيف .

و أما النساء و الأطفال و البهائم و كلُّ ما في المدينة فتغنمها لنفسك ، و تأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك .

هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، و أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما ، بل تحرّمها تحريماً الحثيين و الأموريين والكنعانيين و الغيرزيين و الحوريين و اليبوسيين كما أمرك الربُّ إلهُك) (١)

---

(١)سفر الاستثناء الإصحاح العشرون .

و جاء في الزبور عبارة :

(تقلد أيها الجبار سيفك ، فـــإن ناموســـك و شـــرائعك مقرونة بهيبة يمينك)

و هكذا نرى أن الإسلام قد شارك الأديـــان الســماوية الأخرى بفريضة الجهاد ، و اختلـــف معـــها بأحكامـــه وآدابه، و امتاز عنها .

أولاً : بالرحمة ، و عدم العـــدوان أو التمثيـــل ، ورفع عذاب الاسئتصال .

ثانياً : بأن جعل الحرب إنسانية بحتة .

ثالثاً : بأنه استهدف مـــن وراء الحـــرب نشـــر الإســـلام لصـــلاح الإنســـانية .و خيرهـــا و ســـعادتها وسلامتها، و لا يتأتى ذلك إلا بالسيطرة الكاملـــة علـــى ربوع البلد المدعوِّ أهلَه إلى الإسلام .

هذا ... و سيأتي مزيد إيضاح لهذا البحث فـــي رسالة قادمة ضمن هذه المجموعة من (معارك خـــالدة) إن شاء الله تعالى .

(التمهيدُ لمعركةِ الجسرِ)

لم تقعْ معركةُ الجسرِ بشكلٍ مفاجئٍ مــــن غـــيرِ تمهيدٍ أو مقدماتٍ ، و لم تكنْ عفويةً بلا سببٍ ، بل كان لها أسبابٌ عديدةٌ ، و سبقها معاركَ كثيرةٌ مهَّدَتْ لـــــها ، وكانتِ السببَ لوقوعِها ، فمن أسبابِها .

أولاً : امتثالُ الخليفةِ أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه قولَ اللهِ تبارك و تعالى : (يا أيُّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ... الآية) كما تقدم بيانُ ذلك، و الذين يلون المسلمين ، أي يجاورونهم هُــــمُ الفــرسُ والروم .

أمّا الرومُ فقد تقدم الحديثُ عنـــهم فـــي معركـــةِ اليرموكِ السابقةِ ، و أمّا الفرسُ فهمُ الذين سيكونُ محورُ الحديثِ يدورُ حولهم بإذنِ اللهِ تعـــالى بذكـــرِ مقدمـــاتِ معركةِ الجسرِ إلى ذكرِ أحداثِها و الوقوفِ على تفاصيلِها إن شاء اللهُ تعالى .

ثانيا : تحقيق حلم النبي صلى الله عليه و سلم بتحرير كافة الأرض العربية من الاحتلال الروماني والفارسي ، و تخليص عرب العراق و الشام من استعمارهما و استغلالهما كما تقدّم بيانه في معركة اليرموك .

ثالثا : تطهير البلاد العربية من مظاهر الشرك والوثنية و المجوسية لنشر تعاليم الإسلام و عدالته وسماحته ، و ذلك لا يتحقق إلا بإعلان الحرب ، والدعوة إلى جهاد أهل الشرك و الوثنية .

رابعاً : ضمان الأمن و الأمان ، و السلام والاستقرار لبلاد المسلمين و توفير الراحة و الاطمئنان لجميع أفراد المسلمين و رعايا الدولة الإسلامية من أهل الذمة و غيرهم .

(حكمُ الحبشةِ في اليمنِ)

كان اليمنُ يخضعُ لحكمِ الحبشةِ الذي دام نحـــواً من سبعين سنةً ، و كان أولَ مَنْ قام بالحكمِ فيه رجـــلٌ حبشيٌ يقالُ له : أرياط الذي أرسله النجاشيُّ علــى رأسِ سبعين ألفاً من جنودِ الحبشةِ و كان فيهم أبرهةُ الأشرمُ .

فركب أرياطُ و جنودُهُ السفنَ و مضى يخـــترقُ البحرَ حتى نزل بساحلِ اليمنِ فانتزعها من ذي نُـــواسٍ وكان يهودياً ظالماً غاشماً ، و هو الذي خــدَّ الأخــاديدَ وأوقدَها ناراً أحرق فيها عشرين ألفاً مــن النصــارى ، وهو الذي قال اللهُ تعالى فيه : (**قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ . النارِ ذاتِ الوَقودِ . إذ هم عليها قعودٌ . وهم على مــا يفعلون بالمؤمنين شهود**) [1] إلى آخرِ الآياتِ .

منذ ذلك الوقتِ خضع اليمنُ لحكمِ أريــاطَ مــن الحبشةِ ، ثــم نازعه أبرهةُ الحبشيُّ على الحكمِ و اشتدَّ

---

(١)الآيات ٤–٧ من سورة البروج .

الخلافُ بينهما ، و تفرق أمرُ الحبشة فمنهم مَنْ نــاصرَ أبرهةَ و منهم مَنْ ناصرَ أرياطَ .

فلما اشتدَّ الخلافُ بينهما ، و بلغ الصراعُ ذروتَهُ جاء رسولُ أبرهةَ ليبلغَ أرياطَ أن صاحبهُ يكرهُ الاقتتالَ، و لا يميلُ إلى سفكِ الدماءِ ، و يقترحُ عــليه المبارزة ، فأيهما ظفرَ بصاحبهِ كان الأمرُ إليه .

فرأى أرياطُ في هذا الاقتراحِ إنصافاً ، و رفقــاً بالناسِ ، و حقناً لدماءِ الأبريــاءِ . فــالتقى الخصمــان وتفوقَ أرياطُ على خصمِهِ أبرهــةَ ، و لكــنَّ الحربــةَ أخطأَتْ مقتله ، و إنما شقَّتْ جبهتَهُ و أنفَــهُ و شــفتَهُ ، ولذلك لُقِّبَ (بالأشرمِ) و يسرعُ عبدٌ لأبرهةَ فيضــربُ أرياطَ فيرديه ، تنفيذاً لخطةٍ مدبــرةٍ مســبقاً . فتجتمــعُ الحبشةُ في اليمنِ على أبرهةَ الذي كان يريدُ أن تســودَ المسيحيةُ أرضَ اليمنِ .

و قد كان أرياطُ طويلاً جميلاً قويــاً ذا سياســةٍ وكيدٍ، و كان أبرهةُ قصيراً بديناً ذا دينٍ و نسكٍ وعبادةٍ، و كذلك كان أصحابَهُ ، لذلك دانَتْ له اليمنُ ، واجتمعَتْ

عليه الحبشةُ ، و استوثقَ له الأمرُ .

فلما مات أبرهةُ بعد فشلِهِ في محاولةٍ يائسةٍ لـهدمِ الكعبةِ المشرفةِ ، و إرسالِ طيرٍ أبابيلَ على جيشِهِ الذي انهزم و انحطم و صار كعصفٍ مأكولٍ ، قـام بـالحكمِ بعده ابنُهُ يكسومُ بنُ أبرهةَ ، ثم خلفه بعد موتِـهِ أخـوه مسروقٌ ، فلما اشتدَّ البلاءُ بأهلِ اليمنِ ، خرج سيفُ بـنُ ذي يزنَ حتى قدِمَ على قيصرَ ملكِ الروم يستنجدُهُ فـي إخراجِ الحبشةِ من اليمنِ ، فأبى عليه ذلك لما بينه و بين الحبشةِ من الاجتماعِ على دينِ المسيحيةِ .

فوجد نفسَهُ مضطراً أن يلجأَ إلى الفرسِ فهُمُ القوةُ الثانيةُ في الأرضِ ، فذهب مع النعمانِ بنِ المنذرِ ملـكِ الحيرةِ من قِبَلِ كسرى ، فلما دخل عليه سيفٌ ، قال له: أيها الملكُ ، غلَبَتنا على بلادنا الأغربةُ .

قـال كسـرى : أيُّ الأغربـةِ ، الحبشـةُ أمِ السندُ ،،،؟

قال : بلِ الحبشةُ فجئتك لتنصرَني ، و يكونُ ملكُ بلادي لك .

فقال كسرى بَعُدَتْ بلادُك مع قلةِ خيرها ، فلم أكنْ لأورّطَ جيشاً من فارس بأرضِ العربِ ، لا حاجةَ لي بذلك ، ثم أجازه بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، و خلع عليه كسوةً ثمينةً و نفيسةً ، فجعل سيفٌ ينثرُ دراهمَ كسرى للناسِ ، فبلغ ذلك الملكَ فقال : إن لهذا لشأناً ، فبعث إليه، فقال له : عمِدْتَ إلى حِباءِ[1] الملكِ تنثرُهُ للناسِ...!!

قال : و ما أصنعُ بحباكَ ...؟ ما جبالُ أرضيَ التي جئتُ إّلا ذهبٌ و فضةٌ ، يريدُ بذلك أن يرغّبهُ فيها.

فأشار عليه بعضُ مرازيتِهِ ، فقال له : أيها الملكُ، إن في سجونِكَ رجالاً قد حبستَهم للقتلِ ، فلو أنك بعثتَهم معه ، فإنْ يهلكوا كان الذي أردتَ بهم ، و إن ظفروا كان ملكاً ازدتَّهُ .

فاطمأنَّ كسرى لهذا الرأي فبعث معه مَنْ كان في سجونِهِ ، و جعلهم تحت قيادةِ (وهرز) و كان ذا سنٍ فيهم ، فذهب بهم إلى اليمنِ ، فخرج إليهم مسروقُ بنُ

(١)الحِباء : المنحةُ و العطاء .

أبرهة الذي لم يستطعِ الصمودَ أمامهم فقتــلَ و هربَــتْ جنودُه و تفرقوا في الأرضِ ، ليتمَّ الأمرُ لسيفِ بـــنِ ذي يزنَ الذي ملكَ اليمنَ .

و بذلك يكونُ اليمنُ قد خضع لحكمِ الفرسِ عملياً، و أمّا سيفٌ فكان ملكاً إلّا أنه تابعٌ إدارياً للفرسِ ، شــأن ملوكِ الحيرةِ التابعين إدارياً للفرسِ .

(زوالُ حكمِ الفرسِ)

(من اليمنِ)

هذا ... و بقي اليمنُ خاضعاً لنفوذِ الفـــرسِ ، كلما مات حاكمٌ فارسيٌّ خَلَفَهُ فارسيٌّ آخرُ ، حتى انتـهى الأمرُ لرجلٍ من الفرسِ اسمُهُ باذام ، أو باذان بـالميمِ أوِ النونِ ، و ذلك بعد بعثةِ النبي صلى الله عليه و سلم .

و كانتِ أنباءُ بعثةِ النبي صلى الله عليه و سلم قد بلغَتْ كسرى فكتب إلى عامِلِهِ باذامَ على اليمـنِ : إنـه بلغني أنّ رجلاً مـن العربِ خرج بمكةَ يزعمُ أنه نبيٌّ ، فسِرْ إليه فاستَتِبْهُ ، فإنْ تاب ، و إلّا فابعَثْ إليَّ برأسِهِ .

فبعث باذامَ بكتاب كسرى إلى رسولِ الله صلـى الله عليه و سلم :

فلمّا قُرِئَ الكتابُ على النبـي صلـى الله عليـه وسلم، و رأى ما فيـه مـن لهجـةٍ قاسـيةٍ و غـرورٍ وغطرسةٍ، كتب يردُّ عليه :

إنَّ اللهَ قد وعدني أن يُقَتَلَ كسرى في يـــومِ كـــذا وكذا ... من شهرِ كذا ، فلما قرأ باذامُ الكتابَ وقـــف مستغرباً ، فقال : إن كان نبياً فسيكونُ ما قالَ .

و بات باذامُ ينتظرُ اليومَ الذي ذكرهُ النبيُّ صلـــى الله عليه و ســـلم ، فصدقَتْ نبوءَتُهُ و قتل اللهُ كسرى في اليومِ الـــذي حدَّدَه النبيُّ صلى الله عليه و سلم ، و مَزَّقَ اللهُ ملكَهُ ، فسلَّط عليه ابنَهُ (شيرَويهِ) ، و قيـــل قتلـــه أبناؤهُ ، و في ذلك يقولُ خالدُ بنُ حقٍ الشيباني :

و كسرى إذ تقـــسَّمَهُ بنوهُ   بأسيافٍ كمـــا اقتُسِمَ اللحامُ
تمخَّضَتِ المنونُ لـــه بيومٍ   ألا و لكـــلِ حـــاملةٍ تمامُ

و رُوِيَ أنَّ قتلَهُ كان ليلةَ الثلاثاءِ لعشرٍ خلَونَ مِنْ جمادى الأولى سنةَ تسعٍ من الهجرةِ .

و روي أن رسولَ الله صلى الله عليـــه و ســـلم أرسلَ إلى باذامَ يقولُ له : إنّ ربي قد قتل الليلةَ ربَّـــكَ ، و صدق رسولُ الله صلى الله عليه و سلم ، فهو الذي لا ينطقُ عنِ الهوى .

فلما تأكد باذامُ من ذلك أسلم هو و مَنْ معه من الفرسِ في اليمنِ .

و رُوِيَ أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه و سلم كتب إلى كسرى يدعوه إلى الإسلامِ ، و ذلك حين كاتَبَ الملوكَ و الأمراءَ ، يقولُ فيه :

بسم الله الرحمنِ الرحيمِ ، من محمدٍ رسولِ اللهِ إلى كسرى عظيمِ الفرسِ .

سلامٌ على مَنِ اتَّبعَ الهدى .

أما بعد : فأسلِمْ تسلَمْ يؤتِكَ اللهُ أجرَك مرتين ، فإن تَولَّيتَ فإنما عليك إثمُ المجوسِ .

فلما جاءه الكتابُ قال : ما هذا ...؟

قالوا : هذا كتابٌ جاء من عند رجلٍ بجريرةِ العربِ يزعُمُ أنه نبيٌّ .

فلما فتحه وجد اسم النبي صلى الله عليه و سلم مكتوباً قبل اسمِهِ فغضب غضباً شديداً ، وأخذ الكتابَ فمزقه قبل أن يقرأَه ، و كتب إلى عاملِهِ على اليمنِ .

أما بعد : فإذا جاءك كتابي هذا فابعث مِنْ قَبلِـك أميرين إلى هذا الرجلِ الذي بجزيرةِ العـرب ، الـذي يزعَمُ أنه نبيٌّ ، فابعثْهُ إليَّ في جامعةٍ [1] .

فلما جاء إلى باذام نفَّذَ أمر كسـرى ، و بعـث أميرين عاقلين و قال : اذهبا إلى هذا الرجلِ فانظرا مـا هو ، فإن كان كاذباً فخذاه في جامعةٍ حتى تذهبا به إلـى كسرى ، و إن كان غيرَ ذلك فارجعا إليَّ فأخبِراني مـا هو حتى أنظرَ في أمرهِ .

فلما قَدِما على رسولِ اللهِ صلى الله عليه و سـلم شاهدا منه العجب ، و رأيا أنـه يدعـو إلـى مكـارمِ الأخلاقِ، ومحاسِنِ الأعمالِ ، و لمسا منه أموراً عجيبـةً وعظيمةً وسديدةً ، و مكثا عنده شهراً ، و أخبراه بمـا جاءا به .

فقال لهما : إرجعا إلى صاحبكِما فأخبِراه أنَّ ربي قد قتل الليلةَ ربَّهُ .

ثـم رجعا إلـى اليمنِ فأخبرا باذامَ بما قال لهما

---

(١)الجامعة : القيد .

النبيُّ صلى الله عليه و سلم .

فقال لهما باذامُ : احصوا تلك الليلةَ ، فإن ظهر الأمرُ كما قال فهو نبيٌّ . فجاءته الأنباء من المدائنِ أنَّ كسرى قد قُتِلَ في ليلةِ كذا و كذا لتلك الليلةِ التي حدَّدَ النبيُّ صلى الله عليه و سلم .

فدخل الإسلامُ في قلبِ باذامَ ، و أعلن إسلامَهُ ، و بعث إلى النبي صلى الله عليه و سلم يخبُرهُ بإسلامِهِ .

فبعث إليه رسولُ الله صلى الله عليه و سلم بولايتِهِ على اليمنِ ، و بقي أميراً عليها حتى مات ، فاستتاب ابنَهُ شهرَيَنَ باذامَ .

و كان رسولُ الله صلى الله عليه و سلم قد بعث بعضَ أصحابِهِ إلى اليمنِ يدعون أهلَهُ إلى الإسلامِ ، ويعلمونَهمُ القرآنَ ، مثل خالدِ بنِ الوليدِ ، و علي بنِ أبيَ طالبٍ ، و معاذِ بنِ جبلٍ ، و أبي موسى الأشعري ودانَتِ اليمنُ جميُعها للإسلامِ ، و دخل أهلُها في دينِ اللهِ أفواجاً و ذلك كان آخرَ عهدِ الفرسِ في اليمنِ ، و زالت

شمسَهم عنه ، و انقضى حكمُهم له حين سطع نورُ الإسلامِ على ربوعِهِ ، و تسربتْ هدايةُ الله تعالى إلى قلوبِ أهلِهِ ، بدءاً بإسلامِ حاكمِهِم باذامَ ، و طرحِ دينِ الوثنيةِ و المجوسيةِ ، و الخروجِ من عبادةِ النارِ ، وطاعةِ كسرى إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ القهارِ و طاعتِهِ ، ومتابعةِ رسولِ الله صلى الله عليه و سلم ، و العمل بسنتِهِ و شرعِهِ و الحمدُ للهِ ربِ العالمين ، و ذلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشاءُ و اللهُ ذو الفضلِ العظيمِ .

(المثنى بن حارثة و حروبه)

ذكر علماء التاريخ أن المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه كان يقاتل الفرس في العـــراق ، فيغـــير عليهم بالسواد [1] ، بدون إذن أو تـــأمير مـــن الخليفـــة الصديق ، و هو الذي كان له و لأفراد قبيلته بني شيبان شرف المشاركة في الانتصار العظيم و المشرّف للعرب على جحافل الفرس المتغطرسة في يوم ذي قار التـــي تقدم الحديث عنها في رسالة متقدمة و مستقلة .

و كان المثنى بنُ حارثةَ الشيبانيُّ رضي الله عنـــه قد قدِم على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مع قومِـــهِ سنةَ تسعٍ ، فأسلموا جميعاً ، و بايعوه على الجهادِ فـــي سبيلِ الله .

---

(١)هي أرض العراق و ضياعها ، و سميت سواداً لخضرتـــه بـــالزروع والأشجار ، و حد السواد من مدينة الموصل طولاً إلى عبـــادان ، و مـــن العذيب بالقادسية إلى حلوان عرضاً . انظر التفاصيل في معجـــم البلـــدان ج٥/ص١٥٩ .

و كان المثنى رجلاً مؤمناً صادقاً ، يتفجّر قـــوة وشجاعة و حيوية ، و كان حبُّه لقتال الفرس والانتصار عليهم ، و طردهم من أرض العراق ، و تحرير قومـــه من استغلالهم و استعبادهم قد ملك قلبَه ، و سيطر علـــى مشاعره و أحاسيسه ، و بات شغلَه الشاغل ، و هاجســه الذي لا يغيب عنه و لا يفارقه ، لذلك رأى المثنى الذي أكرمه الله تعالى بالإسلام أن يقاتل تحت لوائه ، ويتــوّج إيمانَه و قوة يقينه بانتصار ساحق على الفـــرس الذيـــن أخضعوه و قومه تحت ذل القهر و الاحتلال والاســتعباد و الاستغلال .

فجعل يغيرُ عليهم و معه عدد من قومه من الذين أكرمهم الله بالإسلام و الذين لم يتجاوز عددهم ثمانيـــــة آلاف مقاتل من بني شيبان و ربيعة ، و مع ذلك كــــان يحقق انتصارات رائعة ، و يلحـــق بـــالفرس خســـائر جسيمة، و هزائم منكرة ، الأمر الذي أقلق الفرس ، وأقضّ مضاجعهم ، و جعلهم في دوامة مـــن الخـــوف والقلق .

و مع ذلك لم يحاول المثنى أن يدخلَ مع الفرس في معاركَ كبيرةٍ و حاسمةٍ نظراً لقلة جيشه بالنسبة لجيوش الفرس الكبيرة و الجرارة ، فكان يكتفي بالقيام بهجمات سريعة و مباغتة ريثما تستقر الأمور السياسية في المدينة ، و تتاح الفرصة للخليفة الصديق أن يرسل له مدداً يكون له عوناً للقيام بعمليات عسكرية أكثرَ عنفاً، و أشدّ فاعلية .

و كانت أخبار المثنى و انتصاراته على الفرس تصل إلى المدينة تباعاً ، الأمر الذي جعل المسلمين يستغربون ذلك و يقولون : من هذا الذي تأتينا أخباره ووقائعه قبل معرفة نسبه ...؟ ولعل القائل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

فقال له قيس بن عاصم : أما إنه غير خامل الذكر ، و لا مجهولُ النسب ، و لا قليل العدد ، و لا ذليل الغارة ، ذلك المثنّى بن حارثة الشيباني .

و روي أن الذي استغرب و تساءل هذا التساؤل هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(قدوم المثنى على أبي بكر)
(الصديق)

لما استبطأ المثنى وصول المدد و العون من الخليفة الصديق رضي الله عنه قرر أن يذهب لمقابلته شخصيا ، و يعرض عليه الأمر مواجهة . فتوجّه إلى المدينة ، فلما اجتمع بأبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال له : يا خليفة رسول الله ، ابعثني على قومي فإن فيهم إسلاما أقاتل بهم أهل فارس ، وأقتل أهل ناحيتي من العدو .

فاستجاب أبو بكر الصديق رضي الله عنه لرغبته لما رأى من صدقه و إخلاصه و غيرته لدينه ، وحماسه للقتال في سبيل الله ، و أمده بعدد من المقاتلين الأشداء ، فأخذهم المثنى و رجع إلى العراق مزوّداً بتأييد الخليفة و دعائه و نصائحه ، و مضى يتابع إغاراته و هجماته

الخاطفة ، و ضرباته السريعة و المفاجئة حتى أنزل فيهم هزائم منكرة ، و انتصارات كثيرة .

ثم أراد المثنى رضي الله عنه أن يتوغّلَ في أرض الفرس ليحقق انتصاراتٍ أوسعَ فبعث أخاه ، أو ابنه مسعود بن المثنى إلى المدينة ليطلبَ من الخليفة الصديق أن يمده بعددٍ آخرَ من المقاتلين .

قال في الإصابة : فأمدّه بخالد بن الوليد رضي الله عنه ، فكان ذلك ابتداء فتوح العراق . فكتب أبو بكر إلى المثنى بن حارثة يقول له : إني قد وليتُ خالدَ بن الوليد فكن معه .

و قد جاء في كتاب الاستيعاب : أن المثنّى بن حارثة لما كتب إلى الخليفة أبي بكر يطلب منه المدد ، قال له في كتابه : إن أمددْتني ، و سمعت بذلك العربُ أسرعوا إليّ، و أذلّ الله المشركين ، مع أني أخبرك يا خليفة رسول الله أن الأعاجم تخافنا و تتّقينا .

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا خليفة رسول الله ، ابعثْ خالدَ بنَ الوليد مدداً للمثنّى بنَ حارثة

يكون قريباً من أهل الشام ، فإن استغنى عنه أهلُ الشام، ألحَّ[1] على أهل العراق حتى يفتح الله عليه .

قال : فهذا الذي هاج أبا بكر رضي الله عنه على أن يبعث خالد بن الوليد إلى العراق . فكتب إليه أن يمضيَ بجيشه إلى العراق ليتسلّم القيادة العسكرية هناك، وليطهّرَها من مظاهر الشرك والوثنية ، و يحرر الأرض العربية من الاحتلال الفارسي ، كما حرَّر اليمامة من مظاهر الارتداد عن الإسلام ، و الصدٌ عن سبيل الله ، و الكذب و الدجل والافتراء على الله ، وادعاء النبوة كذباً و زيفاً و زوراً و بهتاناً ، **(و من أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أُوحيَ إليَّ و لم يوحَ إليه شيءٌ و من قال سأُنزل مثلَ ما أنزل الله و لو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفُسَكم اليوم تُجزون عذابَ الهُونِ بما كنتم تقولون على الله غير الحق و كنتم عن آياته تستكبرون)**[1] صدق الله العظيم .

---

(١)ألح عليهم : قاتلهم حتى ينتصر عليهم .(١)الآية ٩٣ من سورة الأنعام.

(مسيرُ خالدِ بنِ الوليدِ)
(إلى العراقِ)

وصل كتابُ الخليفةِ أبي بكرٍ الصديقِ رضـــي الله عنه إلى خالدِ بنِ الوليد و هو في اليمامةِ ، و قد فـــرغ من أمرِ المرتدين أنصارِ مسيلِمةَ الكـــذابِ و غـــيرِه ، يتضمَّنُ الأمرَ بالمسير إلى العـــراقِ لتـــأليفِ النـــاسِ ، ودعوتهِم إلى اللهِ عز وجل ، فإنْ هم أجـــابوا لـــه فـــهم آمنون ، و إلاّ أُخِذَتْ منهمُ الجزيةُ ، فإنِ امتنعوا عن ذلك فالسيفُ بينه و بينهم .

كما أمَرَهُ أن لا يُكرِهَ أحداً على المســـيرِ معـــه ، وأن لا يستعينَ بمنِ ارتدَّ عنِ الإسلامِ ، و إن رجع بعـــد ردّتِهِ . و أن يصحَبَ كلَّ مَنْ أحبَّ أن يذهبَ معه إلـــى القتالِ ، بعد أن زَوَّدَهُ الخليفةُ الصدّيقُ بأعظمِ نصيحـــةٍ ، ألا و هي تقوى اللهِ تعالى التي إنِ التزمَ بـــها المؤمـــنُ

كانت له درعاً واقيةً ، و زاداً وفيراً في رحلـــة الحيـــاة الشاقّة و البعيدة (**و تزوّدوا فإنّ خير الـــزادِ التقـــوى واتقونِ يا أُولي الألباب**) [1] و مضى خالد رضـــي الله عنه بجيشه مُيمّماً وجهه شطر العراق .

و قد روي أنه انطلق من اليمامة إلـــى العـــراق مباشرة ، و قيل : إنه رجع من اليمامـــة إلـــى المدينـــة فتزود بتعليمات الخليفة الصديق ونصائحِه ، ثم توجّـــه إلى العراق سالكاً طريقَ الكوفة ، و منها استقبله المثنى ابن حارثة ، وانضمّ إليه يقاتل تحت لوائه ، ثم انطلقـــا معاً إلى الحيرة ، و كانا قد اشتبكا في عدة معارك مـــع الفرس حتى انتهيا إلى الحيرة ، و معهما الغنائمُ الكثيرة، و الأموال الوفيرة .

و في الحيرة نزل خالد رضي الله عنه ، وأمـــر جنوده أن يترجّلوا و يضربوا خيامَـــهم ، فـــأقبل إليـــه أشرافها و أمراؤها مـــع ملكهم قبيصةَ بنِ إياس الطائي

---

(١)الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

الذي ملّكه عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر كما تقدم معنا في رسالة (معركة ذي قار)

فلما التقوا بخالد رضي الله عنه سألوه عن سبب مجيئه إليهم ، فقال لهم : جئنا ندعوكم إلى الله و إلى الإسلام ، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم مالَهم ، و عليكم ما عليهم ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم فقد أتيتكم بأقوام هم أحرصُ على الموت منكم على الحياة ، فجاهدناكم حتى يحكم الله بيننا و بينكم .

فقال له قبيصة بن إياس و كان هو و قومُه أهلُ الحيرة عرباً يديِّنون بالنصرانية : مالنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا و نعطيكم الجزية .

فقال لهم خالد : تبّاً لكم إن الكفر فلاةٌ مُضِلّة ، فأحمقُ العرب مَنْ سلكها . ثم تمَّ الصلح بينهما ، وأدّوا لخالد الجزيةَ و كانت مائتي ألف درهم ، قال علماء التاريخ : فكانت أوّلَ جزيةٍ أُخذت من العراق و حَملت إلى المدينة.

و كان ممن قدم مع قبيصة بن إياس إلـــى خـــالد عمرُو بنُ عبد المسيح بن حبان بن بقيلة ، و كان أيضـــاً من نصارى العرب ، فقال له خالد : من أين أثرُك ٠٠٠؟

قال : مِنْ ظهر أبي ٠

قال : و مِنْ أين خرجت ٠٠٠؟

قال : من بطن أمي ٠

قال : ويحك ، على أيِّ شيء أنت ٠٠٠؟

قال : على الأرض ٠

قال : ويحك ، و في أي شيء أنتَ ٠٠٠؟

قال : في ثيابي ٠

قال : ويحك ، تعقلُ ٠٠٠؟

قال : نعم ، و أقيد ٠

قال : إنما أسألك ٠

قال : و أنا أجيبك ٠

قال : أسلم أنت أم حرب ٠٠٠؟

قال : بل سلم ٠

قال : فما هذه الحصونُ التي أرى ٠٠٠؟

قال : بنيناها للسفيه نحبسه حتى يجيء الحليم فينهاه .

ثم دعاهم خالد رضي الله عنه إلـــى الإســـلام أو أداء الجزية ، فأجابوا إلى الجزية كما تقدم .

(خالد يراسل ولاة كسرى)
(و نوابه)

و في أرض الحيرة شرعَ خالدٌ رضي الله عنـــه يراسلُ أمراءَ كسرى و نوابهَ و عماله على النحو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد ، إلى مرازبة فارس ، سلام على من اتبع الهدى . أمـــا بعد :

فالحمد لله الذي فض خدمكم ، و سلب ملككم ، ووهّن[1] كيدكم .

و إن من صلى صلاتنا ، و اســـتقبل قبلتنـــا ، و أكـــل ذبيحتّنا فذلكم المسلمُ الذي له مالَنا ، و عليه ما علَيْنا .

فإذا جاءكم كتابي هذا فابعثوا إلي بالرُّهن [2] ، واعتقدوا مني الذمة ، و إلا فوالذي لا إله غيره لأبعثن إليكم قوماً

---

(١)الوهن : الضعف .

(٢) الرهن : جمع رهينة .

يحبّون الموتَ كما تحبون أنتم الحياةَ ، يجاهدونكم حتى يحكم الله بيننا و بينكم .

فلما بلغهم الكتابُ عجبوا من جرأة خالد التي لم يسبق لهم أن خاطبهم عربيٌّ بمثلها ، حتى هابوه وخافوا لقاءه قبل أن يروه أو يلتقوا معه بقتال .

و راح خالد رضي الله عنه يخوض معهم معركة بعد معركة ، و يحقّقُ عليهم نصراً بعد نصر ، و يلحق بهم هزيمةً بعد هزيمة ، و يغنم الغنائم ، و يقود الأسرى. و يفتح البلاد حتى دانت له معظمُ بلاد فارس ، بعد أن قتل خيرةَ فرسانِهم ، و انتصر على أكبر قادتهم و أمرائهم في معاركَ متتابعةٍ ، و جولات متلاحقة . لايكلّ ، و لا يتعب ، و لا يعيا ، و لا يكره أحداً من جيشه على القتال ، و لم يتخلف عنه منهم أحد .

و يتابع البطل ضرباً في الأرض منتقّلاً من نصر إلى نصر ، و من فتح إلى فتح ، يفتح البلادَ بلداً...بلداً، و يحاصر الحصون حصناً ... حصناً ، و يدخل الثغور ثغراً ... ثغراً ، صلحاً حيناً ، و حرباً

أحياناً آمرا جيشه أن لا يتعرّضوا للفلاحين ، أو العُـزّل من النساء و الولدان و المستضعفين ، لا يقاتلون إلا مَنْ حمل عليهم السلاحَ و قاتلهم ، متمسّكاً بسماحة الإسلام ، و عدالتِه ، و رحمته ، و إنسانيته .

و لقد ذكرتَ معـاركَ خـالد رضـي الله عنـه وانتصاراتِه العظيمة و السريعة و المتلاحقة مفصلة في ترجمته ضمن مجموعة (عمالقة الإسلام) فلا حاجة لإعادتها هنا .

(عودة القيادة إلى المثنى في)
(حروب العراق)

بينما خالد رضي الله عنه فـــي أوج انتصاراتـــه على الفرس في العراق ، و قمّـــةِ مجـــده و ســـلطانه ، وعنفوان عزّه و تفوقه إذ بكتاب الخليفة الصديق رضـــي الله عنه يأتيه و هو في الحيرة يحمل إليه الأمرَ باستنابة المثنى بن حارثة في الإمارة ، و تحوّل خالد إلى الشـــام ليكون عوناً لأمراء الجيوش الإسلامية هناك حيـــث إن الروم قد جمعوا لهم جموعاً كثيرة ، فإذا وصل خالد إلى الشام فهو الأمير عليهم .

و بهذا تكون قيادةُ الجيش الإسلامي قـــد عـــادت مرة أخرى إلى المثنى بن حارثة في العراق ، فكان لها أهلاً ، و بها كُفُؤاً و جديراً .

كان الذعر قد سيطر على الفرس بعد الانتصارات الساحقة و السريعة من المسلمين ، و دبّت الفوضى في صفوفهم ، ووقع الرعب في قلوب جنودهم، خاصة بعد مقتل ملكهم و ابنِه .

فلما علموا بمغادرة خالد أرضَ العراق عاد إليهم الأمل ، و استردّوا عافيتَهم و جمعوا جموعَهم معتقدين أنهم يستطيعون النيلَ من المسلمين ، و إخراجهم من العراق بيسر و سهولة .

فاجتمعوا على شهريار بن أزدشير بن شهريار وتوجوه ملكا عليهم آملين أن تستقرّ الأمور السياسية في القصر الأبيض فيعيدوا مجدهم ، و يثأروا لأنفسهم ، ويستردّوا بسطَ نفوذِهم على العراق كلّه . فبعثوا إلى المثنى جيشاً كثيفاً يقدّر بعشرة آلافِ مقاتل ، يقودهم فارسٌ كبير ، و بطل مجرّب يقال له : (هرمز بن حادويه) فكتب ملك الفرس الجديد إلى المثنى ينذره بالحرب ، و يخوفه بجيشه الكبير الذي اغترّ به و اعتقد أنه لا يغلب يقول فيه :

إني قد بعثت إليك جنداً من وحشِ أهل فـــارس ، إنما هم رعاةُ الدّجاج و الخنازير ، ولست أقاتلك إلا بهم.

فردّ عليه المثنى يقول : من المثنى بن حارثـــة ، إلـــى شهريار ، أما بعد : إنما أنت أحدُ رجلين ، إما باغٍ فذلك شرٌّ لك ، وخير لنا ، و إما كاذبٌ فأعظم الكاذبين عقوبةً و فضيحة عند الله في الناس الملوك . و أما الذي يدلّنـــا عليه الرأي، فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذي رد كيدَكم إلى رعاة الدجاج و الخنازير .

فلمـــا سمع أهل فارس جوابَ المثنى إلى شهريار لاموه على كلامه ، و استهجنوا رأيَه ، ووصفوه بالسفه والحمق ، و ضعف السياسة و الإدارة ، و عدم الحكمة في الحوار و مخاطبة القادة و الأمراء ، و ربّمـــا ثـــار عليه بعضُهم ليخلعوه و يستبدلوا به رجلاً آخـــر يكـــون أكثرَ حِلماً ، و أقوى سياسةً ، و أشدّ مرونة ، لا ســـيما أن الظروف السياسية و العسكرية التي يمر بها الفرس تتطلب الحكمة و المرونة و الروية ، و حســـن الإدارة والتصرف .

(وقعة بابل)

و انطلق المثنّى بجيشه من الحِيرة إلى بابلَ ليلتقي بجيشِ الفرس ، بمكانٍ يقال له : عدوةُ الصراة الأولى ، فكان القتال بينهم قوياً ضارياً ، و اقتتل الفريقان قتـــالاً شديداً ، و كان يتقدّم جيشَ الفرس فيلٌ عظيم مـــدرّب ، فلما رأته خيول المسلمين هابته و نفرت منه ، وفـــرّت من أرض المعركة ، فحمل عليه المثنّى فقتله ، و نادى بالمسلمين فعادوا إلى المعركة ، و حملوا على الفرس ، و شدّوا عليهم شدّةً قوية فكان النصر المظفـــر لـــهم . وللفرس هزيمةٌ منكرة حيث قُتل منـــهم عـــددٌ كبـــير ، فتركوا أرضَ المعركة ، و أداروا ظهورَهم و انطلقـــوا هاربين ، و لم يقفوا حتى بلغوا المدائنَ و كانت عاصمةَ ملكهم ، فدخلوها و هم في أسوأِ حال ، و شر هزيمـــة ، ليجدوا الأحوال السياسية أسوأَ مما لحقهم من خسارة في الحرب ، و هزيمة منكرة أمام المسلمين .

لقد وجدوا الملك شهريار قد مات ، فملكوا عليهم (بوران بنت أبرويز) ابنة كسرى فلم يمض على مُلْكِها أقلّ من سنتين حتى ماتتْ ، فملّكوا أختَها (أزرميدخت زنان) ، فلم تستقرّ الأمورُ ، و لم تهدأ الأحوالُ ، واشتد الخلاف في القصر الأبيض ، و استفحلَ الشرّ ، فخلعوا أزرميدخت و ملّكوا عليهم سابوربنَ شهريار ، و جعلوا أمره إلى الفرفزاذ بن البندوان ، فزوجه الملك سابور بابنة كسرى أزرميدخت المذكورة فأنفته ، و كرهت زواجها منه ، و قالت : إنما أنا ملكةٌ و ابنة ملك ، وهذا عبد من عبيدنا . . . !! فقام لنصرتها بعض الأشراف والقادة ، و رتبوا مؤامرة لتخليصها من الفرفزاذ و قتله و منع زواجها منه ، لأنهم رأوا أن هذه المهزلة لن تنتهيَ إلا بذلك .

و بمنتهى السرعة تسلل بعض الفرسان إلى مخدع الزوجين ، و في ليلة الزفاف انقضّ الفرسان على الفرفزاذ فقتلوه قبل إتمام مراسم الزواج ، ثم تحوّلوا إلى

الملك سابور فقتلوه أيضاً ، و سيطروا على القصـــــر ، واعتقلوا حاشية سابور ، و قتلوا من ثار عليـــــهم مـــن أنصاره ، و أتوا بآزرميدخت بنت كسرى فتوّجوها ملكة عليهم مرة أخرى .

وهكذا نرى أن الأمور السياسية و الإدراية فـــي القصر الأبيض غير مستقرة حيث الفوضى ، و التسيب واللعب بالملك ، و التآمر على سياسة الدولة ، و القتـــل والاغتيال و تتويجُ هذا ملكاً ، و خلع ذالك ، و التصرف في أمور الدولة ، إلى غير ذلك من انعدام الأمن وانهيار الحكم ، و انفصال الجيش ، و تفكّك القيادة ممـــا جعـــل الوضع السياسيّ و العسكري بشكل عام ضعيفاً مَهلهلاً ، فكان هذا الضعف عند الفرس من فضل الله تعالى حيث انعكس قوّةً لصالح المسلمين ، فأعطاهم دفْعاً و تماسكاً ، ليتحوّلَ إلى نصر هائل ، و فتح مُبين أذهـــل المســـلمين أنفسَهم ، فعرفوا كيف يتصرّفون أمام ضعـــف الفـــرس وتفككهم ، فجعلوا منــــه قـــوة و تضامنـــاً و تعاونـــاً ، وأصبحوا يداً واحدة ، و قلباً واحـــداً و صفّـــاً واحـــداً

مطبقين قولَ اللهِ تبارك و تعالى : (إنَّ اللهَ يحبُ الذين يقاتلون في سبيلهِ صفاً كأنهم بنيانٌ مرصوصٌ)[١] .

و قولهُ تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا و اذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحون . و أطيعوا اللهَ و رسولهُ و لا تنازعوا فتفشلوا و تذهبَ ريحُكم واصبروا إنَّ اللهَ مع الصابرين)[٢] صدق الله العظيم .

و لعلّ هذا الوضعَ غيرَ المستقر لدى الفرسِ والذي انتهى بتتويجِ آزرميدختَ ملكةً هو الذي بشّرَ به النبيُّ صلى الله عليه و سلم أصحابهُ بقولِهِ : (لن يفلحَ قومٌ و لّوا أمرهُمْ امرأةً)[٣] . و هذا من معجزاتِ نبينا محمد صلى الله عليه و سلم ودلائلِ نبوتهِ ، فقد تحدث عن هذا الأمرِ قبل حدوثِهِ ، ثم حَدَثَ كما أخبر .

---

(١)الآية ٤ من سورة الصف . (٢) الآيتان ٤٥-٤٦ من سورة الأنفال .

(٣) الحديث صحيح رواه البخاري و أحمد و الترمذي و النسائي .

(ذهابُ المثنى مرةً أخرى لمقابلةِ)
(أبي بكرٍ الصديق)

أقلقتِ الأنباءُ المثنى بنَ حارثةَ رضـــي الله عنـــه حين تأخَرتْ عنه الأنباءُ من الخليفةِ الصديقِ الذي شغلَتْهُ أمورُ الشامِ ، و تسييرُ الجيوشِ إلى اليرموكِ و تـــأمير الأمراءِ ، فقرر أن يذهبَ بنفسهِ إلـــى المدينـــةِ لمقابلـــةِ الصديقِ رضي الله عنه ، فاستناب على العراق بشـــير ابنَ الخصاصيةِ و ذهب إلى المدينـــةِ ليجـــدَ أبـــا بكـــرٍ الصديقَ في مرضِ الموتِ .

فلما رأى الصديقُ المثنى مقبـــلاً عليـــه عـــرف قصدَهُ، وسببَ مجيئهِ فقال لعمرَ بنِ الخطابِ رضـــي الله عنه : إذا أنا مِتُّ فلا تُمسِيَنَّ حتى تندبَ الناسَ لحـــربِ أهلِ العراقِ مع المثنى ، و إذا فتح اللهُ علـــى أمرائِنـــا بالشامِ فارْدُدْ أصحابَ خالدٍ إلى العـــراقِ فإنـــهم أعلـــمُ بحربِهِ.

و تُوفيَّ الصديقُ رضي الله عنه و أرضاه و هو مرتاحُ الضميرِ ، مطمئنُ القلبِ على أمرِ المسلمين وحروبِهِم بعد أن قام بواجبِ الجهادِ في سبيل اللهِ ، وامتثل أمرَ اللهِ تبارك و تعالى بقتالِ مَنْ يليهم من الكفارِ.و بدأ بتحقيقِ حلمِ النبي صلى الله عليه و سلم بتحريرِ كاملِ الأرضِ العربيةِ ، كما وضع اللبناتِ الأولى على أرضٍ صلبةٍ و قويةٍ بتسييرِ الجيوشِ ، وتأميرِ الأمراءِ و إرسالهمِ إلى العراقِ و الشامِ كما تقدمَ.

و لما انتهى أمرُ الخلافةِ إلى عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه تابعَ مسيرةَ سلفِهِ الصديقِ ومشى على سنتهِ ، و طبق سياستهُ ، فندب المسلمين إلى الجهادِ في أرضِ العراقِ و حثَّهم على قتالِ الفرسِ ، و رغّبهم في ثواب الجهادِ في سبيلِ اللهِ و أجرِ المقاتلين فلم يستجبْ له أحدٌ لأن الناسَ كانوا يتهيبون لقاءَ الفرسِ ، و يخشون قتالهم لما سمعوا عنهم من قوةٍ ، و شدةِ بأسٍ ، و تفوقٍ في العددِ و العُدَّةِ ، لذلك لم يقمْ إليه أحدٌ .

ثم نَدَبَهم في اليومِ الثاني و الثالث ، فلم يقمْ إليه أحدٌ .

فقام المثنى بنَ حارثةَ يشجعُهم و يحثـــهم علـــى القتالِ ، ويخبرُهم عن أنباءِ قتاله معـــهم و انتصاراتـــهِ المتلاحقةِ عليهم ، و بما فتح الله عليه من معظـــمِ أرضِ العراق ، وما غنم منهم من أموالٍ و سلاحٍ و عتادٍ ، فلم يستجب له أحدٌ . فلما كان اليومُ الرابعُ قام المثنى خطيباً مرةً أخرى يلهبُ حماسَ الناسِ ، و يبينَ لهم حقيقةَ أمـــرِ الفرسِ و أنهم ليسوا كما يقالُ عنهم بأنهمَ الجيشَ الذي لا يُقهرَ ، و ما يروى عنهم من ذلك ما هو إلا ضربٌ مـــن الخرافةِ و الوهمِ لا حقيقةَ له و لا وجودَ .

ثم أكَّدَ لهم ذلك عن طريق الحقيقة و التجربـــةِ ، فقال : ونحن قاتلناهم و اشتبكنا معهم فـــي أكـــثر مـــن موقعةٍ ومشهدٍ ، فكان النصرَ حليفَنا في كلِ معركـــةٍ ، و لقد تساقطوا تحت ضرباتِ سيوفِنا كالذبابِ ، و هربـــوا أمامنا كالأرانبِ .

و لم يكدِ الناسَ يسمعون كـــلامَ المثنـــى حتـــى تحمسوا للقتالِ و اندفعوا يتسابقون للتطوع في سبيلِ اللهِ،

فكان أولَ المتطوعين أبو عبيدِ بنُ مسعودِ الثقفيُّ الـــذي قام يستنهضُ الناسَ ، و يلهبُ حماسَهم ، و يحثُّهم علــى القتالِ ، فدبّتِ الغيرةُ و الشهامةُ العربيةُ و الإسلاميةُ في نفوسِهِم ، فقاموا يستجيبون لنداء الجهادِ في سبيل الله بعد أن تحرروا من عقدةِ الخوفِ مــن أســطورةِ الجيــشِ الفارسيّ و وضعوا نصــبَ أعينــهمِ قــولَ اللهِ تبــارك وتعالى: (**انفروا خفافاً و ثقــالاً و جــاهدوا بــأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون**)[1] و تتابع المتطوعون للقتالِ ، و تسابقوا إلى الإجابةِ حتى أصبح أمام أميرِ المؤمنين عمرَ رضي الله عنه عددٌ كبيرٌ من المقاتلين يمكنُ الاعتمادُ عليهم في القتالِ .

---

(١) الآية ٤١ من سورة التوبة .

(انتقالُ إمرةِ الجيشِ إلى)
(أبي عبيدٍ الثقفي)

كان أبو عُبيدٍ الثقفيُّ رضي الله عنه شاباً تقياً مؤمناً باللهِ و رسولهِ ، كما كان بطلاً مغواراً ، و فارساً شجاعاً ، وجوّاداً كريماً ، جديراً بالإمرةِ و القيادةِ والزعامةِ ، يبدو ذلك جلياً واضحاً من موقفهِ الباسلِ والشجاع يوم انتدبَ عمرُ رضي الله عنه الناسَ للقتالِ فلم يستجبْ له أحدٌ ، فكان أبو عبيدٍ أولَ المتطوعين ، فكان هذا دليلَ صدقِهِ و إخلاصِهِ و تفانيه ، و صلابتهِ في دينهِ ، وبلائهِ في سبيلِ اللهِ .

و هو والدُ صفيةَ زوجةِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهم جميعاً ، و والدُ المختارِ بنِ أبي عبيدٍ المعروفِ بكذابِ ثقيفٍ ، و لعلَّ المختارَ بن أبي عبيدٍ هو المعنيُّ بقولِ النبي صلى الله عليه و سلم : (يخرج من ثقيفٍ

كذابٌ ومبيرٌ) قال بعضُهم : الكذابُ ، هو المختارُ بن أبي عبيدٍ ، و المبيرُ ، هو الحجاجُ . . . و الله أعلم .

و للصفات النبيلةِ ، و المواقفِ الشجاعةِ لدى أبي عبيدٍ جعله عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه أميراً على الجندِ بدلاً من المثنى بنِ حارثةَ الذي كان قد عزله عمرُ عن قيادةِ الجيشِ يومَ عَزَلَ خالدَ بنَ الوليدِ .

فاعترض الناسُ على إمرةِ أبي عبيدٍ لأنه لم يكن صحابياً و استغربوا تأميره على الصحابةِ ، و قد كان معظمُ المتطوعين من الصحابة ، لذلك قال الناسُ لعمرَ رضي الله عنه : هلاّ أمّرْتَ عليهم رجلاً من الصحابةِ..؟

فأجابهم عمرُ قائلاً : إنما أؤمّرُ أولَ مَنِ استجابَ ، إنكم إنما سبقتمُ الناسَ بنصرةِ هذا الدينِ ، و إنَّ هذا هو الذي استجاب قبلكم . فانصاع الناسُ للحق ، و أيَّدوا رأي عمرَ . ثم قام عمرُ رضي اللهُ عنه فأمَّرَ أبا عبيدة أمام الناسِ جميعاً ، و أخذ يوصيه بتقوى اللهِ في نفسهِ ، وفيمنْ معه من المسلمين خيراً .

ثم أمره أن يستشير أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و أن يستشير خاصّةً سَليط بنَ قيس فإنـــه رجل باشر الحروب ، و له علم و خبرة ، و دراية وفن في مجال الحروب و القتال .

و انطلق المتطوّعون المسلمون إلى العراق تحت قيادة أبي عبيد الثقفي ، و عددهم سبعة آلاف مقاتل .

و كان عمر رضي الله عنه قد كتب لأبي عبيـــدة ابن الجراح بالشام أن يرسل الجنودَ الذين قدموا مع خالد ابن الوليد من العراق إلى الشام و يعيدهم إلى العـــراق وأمره أن يجعل عليهم هاشمَ بنَ عتبة بن أبي وقاص .

ذلك أن عمرَ رضي الله عنه يـــرى أن بإرســـال هؤلاء الجنود من الشام إلى العراق مصلحةً حقيقية فـــي سير عملية الحرب ، لأنهم سبق لهم أن خـــاضوا عـــدةَ معاركَ في أرض العراق ، فهم إذن يعرفون طبيعةَ تلك الأرض ، و طريقة القتال عند الفرس ، من أجل ذلـــك كتب إلى أبي عبيدة أن يعيدَ هؤلاء الجنودَ إلى العراق

عملاً بوصية أبي بكر الصديق الذي قال لعمر : إذا فتح الله على أمرائنا بالشام فارددْ أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أعلم بحربه . ثم أرسل عمر رضي الله عنه جرير ابن عبد الله البجليّ في أربعة آلاف فارس إلى العراق ، فقدم الكوفة ، و ما إن خرج منها حتى التقـــى بجيـــش للفرس و عليهم هرقران المدار ، فاشتبك معـــه جريـــر ودار بينهما قتال انتهى بمقتل هرقران المدار ، و هزيمة جيشه الذي غرق معظُمه في نهر دجلة .

فلما دخل المسلمون العـــراق وجـــدوا الفـــرس مضطربين في ملكهم ، و آخر ما استقر عليه أمرَهم أن ملّكوا عليهم (بوران) بنتَ كسرى كما تقدم .

(وقعة النمارق)

انتهت قيادة الجيش عند الفرس إلى فارس كبير من فرسانهم يقال له : رستم و اشترطوا عليه أن يتولّى أمرَ الحرب عشرَ سنين ، ثم يؤول الملك إلى آل كسرى فقبل بذلك رستم .

و يروى أن رستم هذا كان بطلاً مغواراً يهاب الناس لقاءه ، و يخشَوْن ذكرَ اسمهِ .

و يُروى أنه كان منجّماً ، فقيل له : ما حملك على هذا ...؟

فقال لهم : الطمعَ ، وحبُّ الملك و الشرف .

بعد انتهاء أمر القتال إلى رستم أصبحت الأوضاعُ السياسيةُ عند الفرس شبهَ مستقرة ، فأخذ رستم يتأهّب للقاء العرب المسلمين ، فبعث أميراً يقال له

(جابان) ثم أتبعه بفارسين كبيرين : الأوّل يقـــال لـــه : حشنس ماه ، و الآخر يقال له : مردانشاه ، فالتقَوا مـــع أبي عبيد بمكان يقال له : (النمارق) [1] و على خيـــل المسلمين المثنى بن حارثة ، و على الميسرة عمرُو بـــن الهيثم فدارت بين الجيشين معركةٌ قوية انتـــهت بنصـــر عظيم وكاسح للمسلمين ، و هزيمـــةٍ قبيحـــة و منكـــرة للفرس ، وفيها تـــمَّ أســـر قـــائدي الفـــرس (جابـــان ومردانشاه) فأما مردانشاه فقد قتله آسره . وأما جابـــان فإنه استطاع أن يخدع آسرَه ، فأطلقه فهرب، فأمســـكه المسلمون و أخذوه إلى أميرهم أبي عبيد، فقـــالوا لـــه : اقتله فإنه الأمير .

فقال : و إن كان الأمير فإني لا أقتله ، و قد أمّنه رجـــل من المسلمين .

---

(١)موضع بين الحيرة و القادسية .

و لم يقف المسلمون عند هزيمة الفرس ، و لم يكتفوا بتلك الهزيمة ، فركبوا في أثرهم و انطلقوا يلاحقونهم حتى ألجؤوهم إلى مدينة كسكر و كان يحكمها (نرسى) ابن خالة كسرى ، فجمع نرسى جنوده و خرج لقتال أبي عبيد الذي كان له بالمِرْصاد ، و متيقّظاً لحركاته و مكره أشدَّ التيقظ و الحرص ، فتصدّى له وقاتله قتالاً شديداً اضطر نرسى أن يهربَ ويخلّفَ وراءه أموالاً كثيرة غنمها المسلمون .

و راح المسلمون يطاردون نرسى و جنودَه حتى أدركوهم بمكان بين كسكر و السقاطية ، و كان رستم قد جهز جيشاً كبيراً مع الجالينوس للكرة على المسلمين الذين التقوا معهم في معركة أخرى التقى فيها أبو عبيد بالجالينوس الذي لم يستطع الصمود أمام أبي عبيد وجنوده المؤمنين فهرب من المعركة ، و تبعَه جيشُه الذي تفرّق في الأرض تائهاً متقهقراً ، أما نرسى

والجالينوس فقد هربا إلى المدائنِ و تركا جيشَهما تائـــهاً في الصحراءِ لا يدري أين يتوجّهُ ، أو إلى أين يذهبُ ، و أعزَّ اللهُ عز و جل عبادَه المؤمنين ، و أذلَّ الفـــرسَ أتباعَ النارِ و الشياطين .

و لقد خلَّدَ أحدُ المقاتلين المسلمين هذه المعركــــةَ المظفرةَ بأبياتٍ من الشعرِ قال فيها :

لعمري و ما عمري عليَّ بــهينٍ   لقد صُبّحَتْ بالخزي أهلُ النمارقِ
بأيدي رجالٍ هاجروا نحو ربِهم   يجوسونهم ما بين دِرنا و بــارقِ
قتلناهمُ مــا بين مــرجٍ مسلَّحٍ   وبين الهواني من طريقِ التدارقِ

فأرسل أبو عُبَيدٍ المثنى بنَ حارثةَ على رأسِ عددٍ مـــن الفرسانِ الأشداءِ للإغارةِ على الفرسِ القاطنين حولـــهم كنهرِ جورٍ و غيرِهِ من المدنِ و القرى ففتحـــها صلحـــاً وحرباً ، و ضرب الجزيةَ ، و غنم الأموالَ ، و هابه كلُّ مَنْ سمع به و علم بأخبـــار بطولاتِـــهِ و انتصاراتِـــهِ ، والحمد لله رب العالمين .

(معركةِ الجسرِ)

تمهيد :

وقعَتْ أحداثُ معركةِ الجسرِ في شهرِ شعبانَ سنةَ ثلاثَ عشرةَ من هجرةِ النبي صلى الله عليه وسلم .

و يروى أنها وقعَتْ بعد معركةِ اليرموكِ بأربعين يوماً ٠٠٠٠ و الله أعلمُ .

لقد كانت معركةُ الجسرِ بمثابةِ ابتلاءٍ و امتحانٍ ، و اختبارٍ و تمحيصٍ للمسلمين بعد معاركَ قويةٍ و كثيرةٍ انتهتْ جميعُها بنصرٍ قويٍ و حاسمٍ للمسلمين الذين بدَتْ منهم بطولاتٌ رائعةٌ ، و صمودٌ قويٌ و مشرفٌ كُلِلَ بعونٍ مطلقٍ ، و تأييدٍ كاملٍ من اللهِ تعالى الذي ضَمِنَ لهم النصرَ إنْ هُمُ التزموا أوامرَهُ و اجتنبوا نواهَيهُ ، وأخذوا بالأسبابِ التي شرعها اللهُ عز وجل لهم لقتالِ أعدائِهِ وهي : الصبرُ ، و تقوى اللهِ تعالى ، و التعاونُ

على البرِ و التقوى ، و الاستعدادُ العسكريُّ و المعنـويُّ لخوضِ المعاركِ الفاصلةِ ، و الصدقُ ، و إخلاصُ النيةِ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ لإعلاءِ كلمتِهِ ، و نشرِ دينِهِ ، لا للشهرةِ ، و لا للرياءِ و السمعةِ ، و لا لكسـب الجـاهِ والشرفِ ، أو الطمعِ بالمالِ و الغنيمةِ ، و غيرِ ذلك من الأسباب المشروعةِ للقتالِ ، و في ذلك يقولُ رسـولُ اللهِ صلى الله عليه و سلم : (من قاتل لتكونَ كلمةُ اللهِ هـي العليا فهو في سبيلِ الله) و يقولُ الله تبارك و تعـالى :

(و أعِدّوا لهم ما استطعتم من قوةٍ و مِنْ رباطِ الخيـلِ ترهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم و آخرين من دونِـهِم لا تعلمونهمَ اللهَ يعلمُهم و ما تنفقوا من شيءٍ في سـبيلِ الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون)[1]

(و لَينصُرَنَّ اللهَ مَنْ ينصُرُهُ إنَّ اللهَ لقويٌّ عزيزٌ) [2]

(كم مِنْ فئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ و اللهُ مـع الصابرين) [3]

---

(١)الآية ٦٠ من سورة الأنفال . (٢) الآية ٤٠ من سورة الحج .

(٣) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

(قل للذين كفروا ستُغلبون و تُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله و أخرى كافرة يرونهم مثليْهم رأيَ العين والله يؤيّد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار)[1]

و هذا النصر و التأييد من الله تعالى ممدود و غير محدود بزمان ، و كلما استوفى المؤمنون شروط الإمداد والدعم و النصر أمدهم الله تعالى بها .

(١)الآيتان ١٢-١٣ من سورة آل عمران .

(سيرُ المعركةِ)

أراد الفرسُ أن ينتقموا لما أصابهم مـــن هزائـــمَ منكرةٍ و متلاحقةٍ في موقعةِ النمارقِ و غيرِها ، و لمـــا لحق بهم من فشلٍ ذريعٍ ، و خيبةِ أملٍ كبـــيرةٍ بـــهروبِ أميرِ جيشِهِمْ الجالينوسِ الذي أغضبهم غضباً شـــديداً ، وأفقدهُمُ الثقةَ بأنفسِهِمِ و قوتِـــهِمْ التـــي اغـــتروا بـــها ، وأصيبوا بمرضِ الكبْرِ و الغرورِ و الغطرسةِ ، و مـــا ازدادوا به إلا ضعفاً ووهناً و خسراناً ، وشراً وهزيمةً.

فتذامروا ، و اجتمعوا إلى رستم ، و اتفقـــوا معـــه أن يبعثوا جيشاً كبيراً ، و أن يؤمّروا عليـــه قـــائداً عنيـــداً لتأديب المسلمين ، و الانتقامِ منهم ، و طردِهِم من أرضِ العراقِ ، ثأراً لأنفسِهِمِ ، و استرداداً لكرامتِهِمِ .

لقدِ اختاروا لهذا الأمرِ الجللِ فارساً صنديـــداً ذا خبرةٍ عسكريةٍ فائقةٍ ، و مهارةٍ حربيةٍ كبيرةٍ يقالُ لـــه : بهمنُ بنُ حادوَيهِ ، و يلقَّبُ بذي الحاجبِ ، ووضعـــوا

كلَّ ثقتِهمِ و أماناتِهمِ فيه ، و علَّقوا آمالاً كبـــيرةً عليـــه بالنصرِ على المسلمين و تأديبِهمِ ، و دفعوا إليـــه رايـــةَ أفريدون ، و تُسمَّى (درفـــش كابيـــان) و هـــي كمـــا يعتقدون رايةٌ محميةٌ و مقدسَةٌ ، و كانوا يتيمنون بها فلا يحملُها أحدٌ إلا تبوركَ و انتصرَ ، و لا يرفعُها جيشٌ إلا ظفِرَ و فتَحَ .

(استعدادُ الفريقين عقائدياً)

و انطلق الفرسُ للقاءِ المسلمين و قد حملوا رايـةَ كسرى ، و كانَتْ من جلودِ النمورِ ، و عرضُها ثمانيـةُ أذرعٍ ، بينما كان المسلمون يحملون في قلوبِهِم عقيـدةً سديدةً تؤمنُ باللهِ و اليومِ الآخرِ ، و تؤمنُ بأن النصـرَ والظفرَ من عند اللهِ واهبِ القُوى و القـدرةِ ، و مـانحِ التأييدِ و الفتحِ لمن آمَنَ به و توكَّلَ عليه . و يحفظـون في صدورِهِم و بين جوانِحِهِم آيـاتِ اللهِ تعـالى بـها يتيمّنون النصرَ ، و بها يُلهَمون الصبرَ والثباتَ لينـالوا الفتحَ و النصرَ بقلوبٍ عامرةٍ بالإيمانِ ، طافحةٍ بالثقـةِ ، مؤمنةٍ بأن اللهَ مع الذين اتقوا و الذين هـم محسـنون ، واثقةٍ أنه ما يُلَقّاها إلّا الذين صبروا و ما يُلَقّاهـا إلّا ذو حَظٍ عظيمٍ .

فشتّانَ[1] بين قلوبٍ مشركةٍ مجوسيةٍ تعـبدُ النارَ

---

(١) شتان : بَعُدَ .

و تشرك باللهِ ، و تؤمنُ بالخرافةِ و الوهــمِ ، و تتيمّــنُ برايةٍ لا تضرُّ و لا تنفعُ ، و لا تبصـــرُ و لا تســمعُ ، وتضعُ عليها كلَّ آمالِها و أمانيها . و بين قلوبٍ مؤمنــةٍ تقيةٍ نقيةٍ ، تعبدُ اللهَ وحدَه ، ولا تشركُ به شيئاً ، وتعتمدُ عليه في جميع أمورِها ، وتؤمنُ إيماناً مطلقاً بأنه وحــده الضارُ و النــافعُ ، والفــاعلُ و المدبــرُ ، و المريــدُ والمختارُ، و الناصرُ و الفاتحُ ، والخالقُ و الرازقُ ، إليه الفضلُ و البركةُ ، و الخيرُ والنعمُ و الآلاءُ (**و ما بكــم من نعمةٍ فمِنَ الله**) [1] و تتلو صباحَ مســاءَ قــولَ اللهِ تبارك و تعالى : (**إنْ ينصُرْكُمُ اللهُ فلا غالبَ لكــم و إنْ يخذلْكم فمنْ ذا الذي ينصُرُكم مــن بعــدِهِ و علــى اللهِ فلْيتوكلِ المؤمنون**) [2]

و قولَهُ تعالى : (**يا أيها الذين آمنوا إن تنصُــرُوا اللهَ ينصُرْكم و يثبتْ أقدامَكم . و الذين كفروا فتعســاً لــهم وأضلَّ أعمالَهم . ذلك بأنهم كرِهوا مــا أنزلَ اللهُ فأحبَطَ**

(١)الآية ٥٣ من سورة النحل .

(٢)الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

أعمالَهم أفلم يسيروا في الأرضِ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهِم دمَّرَ اللهُ عليهم و للكافرين أمثالُها. ذلك بأنَّ اللهَ مولى الذين آمنوا و أنَّ الكافرين لا مولى لهم) [1]

فشتّانَ بين هؤلاءِ و هؤلاءِ ...!!

شتّانَ بين مَنْ كان اللهُ وليَّهُ ، و بين مَنْ لا وليَّ له...!!

(إنَّ وليِّيَ اللهُ الذي نزّلَ الكتابَ و هو يتولّى الصالحين)[2]

(اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجُهم من الظلماتِ إلى النور والذين كفروا أولياؤهُمُ الطاغوتُ يخرجونهم مِنَ النورِ إلى الظلماتِ أولئك أصحابُ النارِ هُمْ فيها خالدون) [3]

(مَثَلُ الفريقين كالأعمى و الأصمّ و البصيرِ و السميعِ هل يستويان مثلاً ...؟ أفلا تذكّرون) [4]

أي مَثَلُ المؤمنِ كالبصيرِ و السميعِ ، و مَثَلُ الكافرِ

---

(١)الآيات ٧-١١ من سورة محمد . (٢) الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.

(٣)الآية ٢٥٧ من سورة البقرة . (٤) الآية ٢٤ من سورة هود .

كــالأعمى و الأصَــمَ و هــل يســـــتوي الأعمـــــى والبصيرَ ٠٠٠؟، و الأصَمُّ و السميعُ ٠٠٠؟ اللهم لا .
قال تعالى مجيباً عن هذا السؤالِ ، و موضحـــــاً معنـــى الآيةِ في آيةٍ أخرى : (**و ما يستوي الأعمى و البصيرَ. و لا الظلماتَ و لا النورَ . و لا الظـــلُّ و لا الحـــرورَ . وما يستوي الأحياءُ و لا الأمواتُ إنَّ اللهَ يَســـمعُ مَـــنْ يشاءَ و ما أنتَ بمسْمَعِ مَنْ في القبورِ**) [1]
و هذه الأمثلةُ تنطبقُ على العقيدةِ التي يحملُها الفـــرسُ ، و العقيدةِ التي يحملُها المسلمون ليس فـــي لقائِــهِم فـــي معركةِ الجسرِ فحسب ، بل في كلِ حالةٍ مـــــن أحـــوالِ الفريقين و في كلِ شأنٍ من شئونِهِم فـــي يـــومِ الجســـرِ وسائِرِ الأيام ، و الله مع المتقين .

---

(١)الآيات ١٩-٢٢ من سورة فاطر .

(بدءُ القتالِ)

التقى الجيشان وجهاً لوجهٍ و قد حال بينهما نـــهرُ الفراتِ و عليه جسرٌ ، فقالتِ الفرسُ : إمّا أن تعـــبروا إلينا ، و إمّا أن نعبرَ إليكم .

فقال المسلمون لأميرِهِم أبي عَبَيدٍ : قل لهم أن يعـــبروا إلينا .

فقال أبو عُبَيد : ما هم بأجرأ على الموتِ مِنّا ، ثم اقتحم إليهم بفرسِهِ رافعاً صوتَهُ بالتهليلِ و التكبيرِ .

فتبعَـــهُ المســـلمون و هـــم يـــردّدون نشـــيدَهُمُ الرائعَ ... الله أكبرُ ... الله أكبرُ ... فاجتمعوا للقتـــالِ في مكانٍ ضيقٍ و دارَ القتالُ بينهم قوياً ضارياً ، و قاتل المسلمون قتالاً شديداً ، و ثبتوا يومئـــذٍ ثباتـــاً رائعـــاً ، وصبروا صبراً مشرفاً لم يعهدوا مثلَهُ ، و كانوا نحـــواً من عشرةِ آلافِ مقاتلٍ ، في حين كان الفرسُ أضعـــافَ ذلك فقد كان جيشُهم كبيراً و عظيماً يتقدمَهُ فيلٌ أبيـــضُ

ضخمٌ جداً يتبعُهُ عـــددٌ هـــائلٌ مـــن الفيلـــةِ و عليـــها الجلاجلُ[1]، فلمّا رأتها خيلُ المسلمين ذُعِـــرَتْ منـــها ، وهربَتْ أمامَها لعدمِ تدريبِها على الصمودِ أمامَ الفيلـــةِ ، فكان الفرسُ كلما حملوا على المسلمين فَـــرَّتْ خيولُـــهم خوفاً من الفيلةِ ، و لم يثبتْ منها إلّا القليلُ على قسرٍ من فرسانِها . و إذا حمل المسلمون على الفرسِ أحجمَـــتْ خيولُهم فلم تتقدمْ نحو الفيلةِ ، فكانت تقفُ مكانها ثم تكرُّ راجعةً ، الأمرُ الذي أضعفَ موقفَ المسلمين ، و جعـــل موقفَ الفرسِ قوياً ، فأخذوا يرشقون المسلمين بوابلٍ من سهامِهِم فقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وقف أميرُ المسلمين أبو عُبَيـــدٍ يتفحَّـــصُ ســـيرَ المعركةِ فرأى أن الغلبةَ التي أصابتِ جيشَهُ ما هـــي إلا بسببِ هجومِ الفيلةِ و صياحِها و رنينِ أجراسِها ، فـــرأى أن المعركة لن تُحسَمَ إلا بقتلِ تلك الفيلةِ ، فجعل ينـــادي المسلمين أنِ اقتلوا الفيلةَ فـــهي التـــي أثارَتِ الذعرَ بين خيلِ المسلمين . فترك المسلمون قتالَ الفرسِ و كَرَّسوا

---

(١)الجلاجل : الأجراس .

جهدَهم لقتلِ الفيلةِ لعلّ وجهَ المعركةِ يتغيّرُ لصالِحِهم ، فاحتوشوها وقتلوها عن آخرِها .

و بذلك ارتفعَتْ معنوياتُ المسلمين ، و قويَتْ روحُهُمُ القتاليةُ حين رأَوا بأعينِهِم مصارعَ الفيلةِ ، وزال عن خيلِهِم ما أصابها من الخوفِ و الذعرِ فضاعفوا جهودَهم ، و استردّوا عافيتَهم ، و شدّوا على الفرسِ شدةً قويةً ، و مالَتْ كفةُ المعركةِ لصالحِ المسلمين ، والحمد للهِ ربِ العالمين .

(مقتل أميرِ المسلمين)

وقف أميرُ المسلمين أبو عُبَيدٍ الثقفيُّ يحثُّ المسلمين على القتالِ و الثباتِ في وجهِ العدوِ ، ويوصيهِم بتقوى اللهِ تعالى و التعاونِ ، و الأخذِ الكاملِ بأسبابِ النصرِ ، و يبينُ لهم إن هو مات في هذه المعركةِ ، فإن أميرَ الجيشِ مكانه فلانٌ ، فإن قُتِلَ تسلّمَ الإمرةَ بعده فلانٌ ... و هكذا حتى أوصى بالإمرةِ لسبعةِ أمراءَ بعدَهُ .

ثم انقضّوا على الفيلةِ فاحتوشوها حتى قتلوها عن آخرِها ، و انقضَّ أبو عُبَيدٍ على أكبرِ الفيلةِ و أضخمِها و هو الفيلُ الأبيضُ الذي كان يتقدَّمُها ، فحمل عليه فضرب خرطومه بالسيفِ فقطعَهُ ، فلم يمُتْ بل حمي عليه، و صاح صيحةً قويةً هائلةً و هجم على أبي عُبَيدٍ و جعل يتخبطُهُ برجليه حتى مات رضي اللهُ عنه وأرضاه ، ثم وقف عليه ، فحمل عليه نائبُهُ الأولُ الذي

أوصى له أن يكونَ أميراً بعده ، فقتلهُ الفيلُ ، ثم تقــــدَّمَ النائبُ الآخرَ فقُتِلَ ، و الثالثُ فقُتِلَ ••• و هكذا حتـــــى قُتِلَ النوّابَ السبعةُ و جميعُهم من ثقيفٍ .

و كانت دومةُ امرأةُ أبي عُبَيد قد رأَتْ مناماً يــدلُّ على ما حَدَثَ لأبي عُبَيدٍ سواءً بسواءٍ .

(عودةُ الإمرةِ إلى)
(المثنى بنِ حارثةَ)

بعد مقتلِ الأمراءِ السبعةِ الذين عيَّنهم أبو عُبيدٍ عادتِ الإمارةُ إلى المثنى بنِ حارثةَ بمقتضى الوصيةِ .

و كان المقاتلون المسلمون قدِ انهارَتْ معنوياتُهم ، وضعُفَتْ قواهم ، و أصابَهمُ الوهنُ حين رأوا أمراءَهم يُقتَلون الواحدَ بعد الآخرِ ، و كانتِ الدائرةُ أوشكَتْ أن تدورَ على الفرسِ ، و أصبح نصرُ المسلمين قابَ قوسينِ أو أدنى ، لولا أنهم رأوا ما رأوا مِنْ مقتلِ أمرائِهِم ، فانهارَتْ قواهم وولَّوا مدبرين ، فتبعَهُمُ الفرسُ، و لحقوا بهم ، و قتلوا منهم عدداً كبيراً ، ولا يزالون مدبرين حتى بلغوا الجسرَ ، فمرَّ بعضُهم فانكسر بهم ، و سقط عددٌ كبيرٌ منهم فمات غرقاً في الفراتِ ، وتبعَهُمُ الفرسُ يقتلونهم حتى قتلوا يومئذٍ أربعةَ آلافٍ ، فإنا للهِ و إنا إليه راجعون .

(المثنى و إنقاذ جيش
المسلمين)

لما رأى المثنى رضي الله عنه ما حَـلَّ بجيشِـهِ حزن حزناً شديداً ، و اعتصَرَ ألمـاً علـى مـا وقـع بالمسلمين من خوفٍ و قتلٍ و هزيمةٍ ، ثم انتفضَ كمـا ينتفضُ الأسدُ في عرينِهِ ، و رأى أن الواجـبَ يقضـي عليه أن ينتصرَ على الحزنِ ، و يتفوّقَ على الآلامِ ، ولا يستسلمَ لليأسِ و القنوطِ ، و لا بدَّ مِنْ إيجادِ خطةٍ ذكيـةٍ لإنقاذِ المسلمين ممّا هم فيه من ضعفٍ و تقهقرٍ و هزيمةٍ لم يسبقْ لهم أن رأوا مثلَها ، أو مَرُّوا بها في تاريخِهِم .

وقف المثنى رضي اللهُ عنه أمام الجسرِ ، و جعل ينظرُ إلى الناسِ و هم متقهقرون لدرجةٍ أن بعضَهم أخـذ يلقي بنفسِهِ في الفراتِ لشدةِ ما لقي من يأسٍ في النجاةِ ، و قنوطٍ من الحياةِ ، فجعل المثنى يناديهم و يقولُ : أيها

الناسُ ، على هينتِكم ، فإني واقفٌ على فـم الجسـر لا أجوزُهُ حتى لا يبقى منكم أحدٌ ههنا ، فسمع الناسُ نداءهُ و تشجيعَهُ ، فدبَتْ فيهم الروحُ ، و عاد إليـهمُ الأمـلُ وجعلوا يجتازون النهرَ إلى الضفةِ الأخرى حتى التقـوا جميعاً عندها ، فأخذهم و مضى بهم حتى نزل بمكـانٍ آمنٍ ، و كانوا قد أصيبوا بتعبٍ و إعياءٍ شديدَين ، و لم يكادوا يخلدون إلى الراحةِ حتى ضرب اللهُ النومَ علـى أعينِهم ، فمنهم مَنْ كان جريحاً ، و منهم من كان جائعاً، و منهم من كان عطشان ، أو منهوكَ القوى ، أو خـائرَ العزيمةِ ، أو فاقدَ القوةِ المعنويةِ فهم بحاجةٍ ماسةٍ لراحةِ الجسمِ و الأعصابِ ، و الخلودِ إلى النومِ لاستعادةِ قوتِهِم و نشاطِهِم ، فناموا ، و بات أميرُهُمُ المثنـى يحرسُـهُم ومعه عددٌ من الفرسانِ ، و جعل المثنى يتفقدُهم بعـد أن أحصى عَدَدَ القتلى ، و علم أنَّ منهم مـَنْ ذهـبَ فـي الصحراءِ فضاع فيها و هو لا يدري أين يذهـبُ ، ولا إلى أيةِ جهةٍ يتوجَّهُ ، و منهم مَنْ ذهـب إلـى المدينـةِ مذعوراً خائفاً وجلاً .

و قد رويَ أنَّ أولَ مَنْ وصل بالخبرِ إلى المدينةِ عُبيدُ اللهِ بنُ عاصمٍ المزنيُّ الذي دخل مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه و سلم فوجد أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه قائماً على المنبرِ يخطبُ بالمسلمين ، فسأله عمرُ :

ما وراءَكَ يا عبيدَ اللهِ ...؟

قال : أتاكَ الخبرُ اليقينُ يا أميرَ المؤمنين .

ثم صعِدَ إليه المنبرَ فأخبَرهُ الخبرَ سراً كي لا تدبَّ الفوضى بين المسلمين ، أو يتسربَ إليهم الضعفُ و الوهنُ ، و يكثرَ القيلُ و القالُ .

و يروى أن أولَ مَنْ قدِم بالخبر إلى المدينةِ عبدُ اللهِ بنُ يزيدَ بنِ الحُصَيَنِ . هذا ... و لم يعاقبْ أميرُ المؤمنين عمر رضي الله عنه الذين فَرُّوا من أرضِ المعركةِ ، و لم يؤنِّبْ أحداً لأنه يعلمُ الظروفَ التي أحاطتِ المسلمين يومَ الجسرِ ، والابتلاءَ الذي أصابهم .

كما أنه يعلمُ حقيقةَ جندِهِ و نواياهم و إخلاصَهم لدينِهم و صدقَهم مع ربِهِم ، فعذَرَهم و قال لهم : أنا فيئكم [1] ، ذلك أنه يعلم أنهم لم يفروا عن خوفٍ وجبنٍ، و لاشكٍ و لا ارتيابٍ ، و لولا سقوطُ الجسرِ وتكسيرُهُ ، و لولا وقوعُ المسلمين في النهرِ لكانتِ النتائجُ عكسَ ذلك ، و لكن ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

و مَنْ يدري ... لعل اللهَ عزَّ و جلَّ أراد أن يبتليَ عبادَهُ بأنواعِ المحنِ و الشدائدِ ليثيبَهم ، و يرفعَ منازلَهم ، و يضاعفَ لهمُ الأجرَ .

و في معركةِ الجسرِ حين ولَّوا مدبرين و قد أصابهمُ القتلُ و الوهنُ ، و الضعفُ و النعاسُ ، والجوعُ و العطشُ ، و فقدوا كلَّ أسبابِ القوى المعنويةِ و الماديةِ أراد اللهُ تبارك و تعالى أن ينزلَ عليهم نعمةً عظيمةً ، ويمدَّهم بسلاحٍ قوي جداً .

لقد ضرب الله عز وجل النومَ على أعينهم ، فناموا و أخذوا قسطاً وافراً من راحةِ الجسمِ

---

(١)فيئكم : مرجعكم ، و فاء الرجل يفيء فيئاً : رجع .

و الاعصابِ ،واستعادوا نشاطَهم و عافيتَهم ، و في ذلك يقولُ اللهُ تبارك و تعالى :

(إذ يغشّيكُمْ النعاسَ أمنةً منه و ينزلُ عليكم من السماءِ ماءٍ ليطهرَكم به و يُذهِبَ عنكم رجزَ الشيطانِ وليربطَ على قلوبِكم و يثبتَ به الأقدام) (١)

و يقولَ تعالى :

(ثم أنزلَ عليكم من بعدِ الغمِ أَمَنَةً نعاساً يغشى طائفةً منكم و طائفةٌ قد أهمَّتْهم أنفسُهَم يظنون باللهِ غيرَ الحق ظنَّ الجاهليةِ) (٢)

فالنعاسُ و النومَ إذن من الأسلحةِ المعنويةِ التي أمدَّ اللهُ تعالى بها عبادَه المؤمنين لاستعادةِ القوةِ الماديةِ والمعنويةِ ، و ذلك فضلُ اللهِ عليهم ، و كان فضلُ اللهِ على عبادِهِ عظيماً .

و كأن اللهَ عز و جل يخاطبُ عبادَه مرةً أخرى بعد أن خاطبهم يومَ أحدٍ ليضعَ في قلوبِهِمُ الصبرَ والسلوانَ ، و يسكبَ فيها الأملَ ، و يفتحَ لها أبوابَ

---

(١)الآية ١١ من سورة الأنفال . (٢)الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

الرجاءِ فـــلا تيأسْ ، و لا تقنطْ ، و لا تــشعرُ بالخيبـــةِ والضياعِ ، فقال تعالى :

(هذا بيانٌ للناسِ و هدىً و موعظةٌ للمتقيـــن . ولا تـهنوا و لا تحزنوا و أنتمُ الأعلَون إنْ كنتم مؤمنين. إنْ يمسَسْكم قرحٌ [1] فقد مسَّ القومَ قرحٌ مثلُهُ و تلـــك الأيامُ نداولُها بين الناس و ليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداءَ و اللهُ لا يحبُّ الظالمين . و ليمحّـــصَ اللهُ الذين آمنوا و يمحقَ الكافرين . أمْ حسبتم أن تدخلـــوا الجنةَ ولمّا يعلمِ اللهُ الذيـــن جـــاهدوا منكـــم و يعلـــمَ الصابرين) [2] صدق الله العظيم و للهِ عز وجـــل فـــي عبادِهِ سننٌ لم تنقضِ ، و لم تنتهِ ، و لم تتخلّفْ . كمـــا أنها لن تنقضيَ، و لن تنتهيَ ، و لن تتخلّفَ .

فهو يختبرُ عبادَه بما يشـــاءُ ، و كمـــا يشـــاءُ ، ويؤيدُهم متى يشاءُ ، و كيفما يشاءُ ، و ينصرُهُـــم بمـــا يشاءُ ، و متى يشاءُ ، فلا يُسألُ عمّا يفعلُ و هم يُسألون،

---

(١)القرح : الجراح .

(٢)الآيات ١٣٨-١٤٢ من سورة آل عمران .

و هو القائلُ سبحانه و تعالى : (إنْ ينصُرْكُـــمُ اللهُ فـــلا غالبَ لكم و إن يخذُلكم فمنْ ذا الـــذي ينصُرُكـــم مِـــنْ بعدِه....؟ و على اللهِ فليتوكلِ المؤمنون) [1]

(١)الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

(عودةُ الثقةِ إلى)
(المسلمين)

أراد اللهُ عز وجل أن يعيدَ الثقـــةَ إلـــى عبـــادِهِ المؤمنين ، فضرب قلوبَ الفـــرسِ بعضَـــهم ببعـــضٍ ، فاختلفوا فيما بينهم ، و انشغلوا بأمرِ ملكِهِم .

فقد حدث أن أهلَ المدائنِ عَـــدَوا علـــى رســـتمَ فخلعوه ، ووقع الشرُّ بينـــهم ، و اضطربـــت أمورُهـــم وكادوا يقتتلون ، ثم أعادوا رستمَ إلى منصبهِ و أضـــافوا إليه الفيرزان ، ثم اختلفوا على فرقتين ، منهمُ المؤيـــدُ ، و منهمُ المعارضُ .

و هكذا شُغِلوا بأنفسِهِم ، وردَّ اللهُ ســـهامَهم إلـــى نحورِهم ، و شغلهم عن المسلمين الذين عرفـــوا كيـــف يستفيدون من هذا الخلافِ ، و يستغلونه لصالحِ حربِهم ، فكان هذا من فضلِ اللهِ عليهم ، و من أســـبابِ النصـــرِ والدعمِ و التأييدِ .

بلغتِ الأخبارُ المثنى بــنَ حارثــةَ الــذي علــم بالخلافِ الواقعِ في القصرِ الأبيــضِ بــالمدائنِ ، و أن الجيشَ الفارسيَّ قد تجمَّع عندها ، فركب المثنى في عدد من فرسانِهِ ، و انطلق نحو المدائنِ ، فاعترض طريقــهُ أميران من أمرائِهم فدارت بينه و بينهما معركةٌ قويـــةٌ انتهت بمقتلِ عددٍ كبيرٍ من جنـــودِ الفــرسِ ، و أســرِ الأميرين و مَنْ نجا من القتلِ ، فلم يُتْرَكوا عالــةً فــأمر المثنى بقتلِهم جميعاً ، فقُتِلوا .

و قد أراد الأميرُ المثنى أن يعززَ جيشَهُ لينتشـــرَ في بلادِ الفرسِ ، ليعيدَ الثقةَ إلى نفوسِ جنودِهِ ، و ينتقم لقتلى المســلمين ، و يُظــهِرَ لعــدوِهِ القــوةَ و البــأسَ و الشجاعةَ .

فأرسل إلى جميعِ أمراءِ المسلمين في العــراقِ أن ينضمّوا إليه ليشكلوا معاً قوةً قويـــةً ضاربـــةً ، توجــعُ الفرسَ ضرباً ، و تشلُّ حركتَهم ، و تقضي عليهم .

فاستجابوا له ، لكنهم لم يأتوا إليه جميعاً بل بعثوا إليه بالإمدادِ ليبقواهم في أماكنِهِم متشبثين بالبلادِ التـــي فتحوها .و هذا أيضاً رأيٌ سديدٌ من هــؤلاءِ الأمــراءِ ، فالانسحابُ من بلادٍ فتحوها ، و قدّموا لفتحِــها أعــداداً هائلةً من الشهداءِ ، و بذلوا في سبيلِ ذلك الفتحِ جـــهداً كبيراً ، و تعباً مضنياً ، و مشقةً جسيمةً ، ثم يغادرونها ويتركونها لتعودَ بكـــلِ يســرٍ و ســهولةٍ إلــى أيــدي الفرسِ...!!

من أجلِ هذا ظلوا في أماكنِهِم و أرسلوا إلـــى المثنـــى بالإمدادِ .و إتماماً لخطةِ المثنى بعث إلى أميرِ المؤمنين عمرَ رضي اللهُ عنه يستمدُهُ بالجنودِ فاستجاب له عمـــرُ وبعث إليه جريرَ بنَ عبدِ الله البجليَّ أميراً علـــى قومِـــهِ بُجيلةَ بكمالِها .

كما بعث إليه عمرُ أميراً آخرَ و معه عـــددٌ مـــن ساداتِ المسلمين و خيرةِ فرسانِهِم ، و بذلك يكـــونُ قـــدِ

اجتمعَ للمثنى عددٌ لا بأسَ به من المقـــاتلين المســـلمين يستطيعُ بهمُ الثأرَ لقتلى المسلمين ، و القصاصِ العـــادلِ من الفرسِ مجتمعين .

(القصاصُ)

تسرّبَتِ الأنباءُ إلى الفرسِ بتجمُّعِ الجيوشِ العربيةِ الإسلاميةِ ، فغضبوا لذلك غضباً شديداً ، و جهزوا جيشاً كبيراً ، و أقَّروا عليه فارساً عنيداً يقالُ له : (مـــهران) وانطلقوا للقاءِ المسلمين ، فالتقوا بهم بموضعٍ يقالُ لـــه (البويبُ)[1]فحال بينهمُ الفراتُ فقالوا للمسلمين : إمّا أن تعبروا إلينا أو نعبرَ إليكم .

فقال المسلمون : بلِ اعبروا إلينا .

فعبرتِ الفرسُ إليهم ، و ذلك في شهرِ رمضانَ المباركِ ، فأمر المثنى جنودَهُ أن يفطروا ليكونَ أقـــوى لهم على القتالِ .

و جعل المثنى يدورُ بنفسِهِ على كلِ رايـــةٍ مـــن راياتِ القبائلِ يتفقدُ استعدادَهم و يعظُـــــهم بتقـــوى الله،

---

(١)البويب : نهر كان بالعراق موضعَ الكوفة ، يأخذ من الفرات .

ويحثُهم على الجهادِ في سبيلِ الله ، و يـــأمُرُهم بـــالصبرِ والثباتِ حتى إذا اطمأنَّ لنشاطِهِم و حماسِهِم ، و رفــــعِ معنوياتِهِم ، و أيقنَ مِنِ استعدادِهِمُ التامِ للقاءِ عدوهِـــم ، قال لهم : إني مكبرٌ ثلاثَ تكبيراتٍ فتهيئوا ، فإذا كبرتُ الرابعةَ فاحملوا عليهم حملةَ رجلٍ واحدٍ . فقابلوا كلامَـــهُ بالسمعِ و الطاعةِ و القبولِ .

فلما كبَّر المثنى أولَ تكبـــيرةٍ عاجلَتْـــهمُ الفـــرسُ لينالوا منهم ، و ليكونوا أولَ مَنْ يضــــربُ ، و كأنـــهم فهموا ما قال المثنى ، ثم حمل عليهمُ المسلمون ، وصمدوا أمامهم ، و ثبتوا لهم بكــــلِ قـــوةٍ و صــــبرٍ ، وشجاعةٍ و استبسالٍ .

و في أرضِ المعركةِ وقف البطلُ المثنى يرقــــبُ القتالَ ، و ينظرُ إلى وضعِ جنودِهِ ، فأبصر في بعضِ

الصفوفِ خللاً ، فبعث إليهم رجلاً يقولُ لهم : الأميرُ يقرأُ عليكمُ السلامَ و يقولُ لكم : لا تفضحوا العربَ اليومَ، فاعتدلوا ، و سوّوا صفوفَهم و سدّوا ذلك الخللَ.

فنظر إليهمُ المثنى ، و سُرَّ من فعلِهم و تجاوبِهم، و استبشرَ خيراً ، و أيقنَ بنصرِ اللهِ ، و جعل يناديهم : يا معشرَ المسلمين ، انصروا اللهَ ينصُرْكم و يثبتْ أقدامكم ثم توجَّهَ إلى ربهِ عز وجل بقلبِهِ ، و ابتهل إليه بلسانِهِ طالباً النصرَ و الفتح و أخذ المسلمون يدعون ربَهم و هم يقاتلون ، و جعلوا يرفعون أصواتَهم بالتهليلِ و التكبيرِ .

هذا ... و قد طالَتْ مدةُ الحربِ ، و تحمَّلَ الفريقان شدتَها و أهوالَها و قاسى الجميعُ لظاها ولأواءها، و ثبت المسلمون ثباتاً قوياً ، و صمدوا صموداً مشرفاً و ضربوا أروعَ الأمثلةِ في الصبرِ والشجاعةِ و الثباتِ لم يسبقْ أن شهِدَتِ الدنيا مثلَها بطولةً و روعةً ، و بهاءً و شدةً و مضاءً .

فلما رأى المثنى أن مدةَ الحربِ قد طالَتْ أراد أن يحسمَها ليجنبَ جنودَهُ أخطاراً قد تكونُ أشدَّ و أقسى من معركةِ يومِ الجسرِ .

فجمع بعضَ الفرسانِ الأشداءِ و طلب منهم أن يحموا ظهرَهُ و انطلق في أرضِ المعركةِ كالسهمِ النافذِ يصولُ و يجولُ بين صفوفِ الفرسِ يضربُ بسيفِهِ البتارِ يميناً و شمالاً فتتساقطُ رؤوسُ جنودِ الفرسِ تحت ضرباتِ يمينِهِ كالذبابِ المترنحِ ، و يتابعُ ضرباتِهِ المتتاليةَ مخترقاً صفوفَ العدوِ و كأنَّ الطريقَ مفتوحةٌ أمامه و خاليةٌ من الجنودِ ، و من أيةِ مقاومةٍ .

و يمضي البطلُ منطلقاً في أرضِ المعركةِ يبحثُ عن مهرانَ قائدِ الجيشِ الفارسي ، فلما أبصَرهُ حمل عليه و أخذ يقاتلُهُ حتى أزالَهُ عن موقعِهِ و دخل ميمنةَ جيشِهِ حتى توارى عن أنظارِ المثنى .

فأبصره غلامٌ نصرانيٌ من بني تغلب فتصدّى له

فقتلَهُ و أخذ فرسَهُ . و قيل : حمل عليه المنذرُ بنُ حسانَ ابنِ ضرارِ الضبّيُّ فطعنه بسيفِهِ طعنةً أثبتتْهُ ، فتقدم إليه جريرُ بنُ عبدِ الله فاحتزّ رأسَهُ .

فلما رأى جنودُ الفرسِ مصرعَ أميرِهم تركوا القتالَ ، و غادروا أرضَ المعركةِ ، و اشتدوا هاربين ، فركب المسلمون أكتافَهم ، و أعملوا فيهم سيوفَهم ، يضربون بها رؤوسَهم فيفصلونها عن أكتافِهِم.

هذا ... و المسلمون حريصون حرصاً شديداً أن يسبقوا الفرسَ إلى الجسرِ ليمنعوهم من الجوازِ عليه كي لا يفوزوا بالنجاةِ .

و لقدِ استؤنِفَ القتالُ مرةً أخرى أمام الجسرِ وكلٌّ فريقٍ حريصٌ أن يسبقَ خصمَه إليه ، و استمرَّ القتالُ قوياً ضارباً طيلةَ النهارِ متصلاً بالليلِ حتى لقد قُتِلَ من الفرسِ في تلك المعركةِ و في اليومِ و الليلةِ ما يقاربُ

المئة ألفٍ بين قتيلٍ و غريقٍ ، و تركوا وراءهم أموالا وفيرةً ، و عتاداً كثيراً أخذها المسلمون فيئاً و غنيمةً .

و كذلك قتل يومئذٍ من المسلمين عددٌ كبيرٌ ، ولكنِ النهايةُ كانت لصالحِ المسلمين ، فهمُ الذين انتصروا في تلك المعركةِ انتصاراً ساحقاً ، و فتحَ اللهُ عليهم فتحاً مبيناً و الحمد لله رب العالمين .

و بذلك يكونُ المسلمون قدِ انتقموا لأنفسِهِم انتقاماً عظيماً ، و ثأروا لقتلاهم ثاراً شديداً أنساهم هزيمتَهم ومرارتَهم في معركةِ الجسرِ .

قال المؤرخون : و ذلَّتْ لهذه الوقعةِ رقابُ الفرسِ ، و تمكن المسلمون من الإغاراتِ في بلادِهِم فيما بين الفراتِ و دجلةَ ، فغنموا مغانمَ كثيرةً ، لا يمكنُ حصرُها .

و قد قال أحدُ المقاتلين المسلمين و هو يخلدُ هذه

المعركةَ المظفرةَ ، و هو الأعورُ الشنّي العبدي :

هاجَتْ لأعورَ دارُ الحي أحزانا واستبدلت بعد عبدِ القيسِ حُسّانا
وقــد أرانا بها و الشملُ مجتمعٌ إذ بالنخيلةِ قتلــى جــندُ مهرانا
إذ كان سار المثنى بالخيولِ لهم فقتَّلَ الزحفَ من فرسٍ و جيلانا
سما لمهرانَ و الجيشِ الذي معه حتــى أبادهم مــثنى ووحــدانا

(محاولة يائسة)
(من الفرس)

رأى الفرسُ ما حلَّ بهم من هزائمَ منكرةٍ ، وخسائرَ متلاحقةٍ أمام المسلمين فأحسوا بفقدان هيبتِهم ، و ذهابِ ريحِهم ، و تعرضِ كرامتِهم للمذلةِ و الإهانةِ .

و شعروا باهتزازِ عرشِ ملكِهم ، و تعرضِهِ للتهاوي و السقوطِ على أيدي المسلمين ، خاصةً و قد علموا أنهم يعززون قوتَهم ، و يجمعونها في أرضِ العراقِ تحت قيادةِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ رضي الله عنه الذي يلَقَّبُ بالأسد في براثنِهِ و تسربَتِ إليهمُ الأنباءُ بأن سعداً ليس كغيرِهِ من الأمراءِ و القادةِ المسلمين الذين خبروهم ، و اشتبكوا معهم ، فهو الفارسُ العربيُّ الكبيرُ ، و القائدُ الذي لا يُهزَمُ ، و البطلُ الذي لا يُشَقُّ له

غبارٌ ، و هو الصحابيُّ الجليلُ الذي كـــان رســولُ الله صلى الله عليه وسلم يفخرُ به أمــام الصحــب الكــرامِ جميعاً، و يقربُهُ منه ، و يقومُ احتراماً لـــه ، و يُجلِسُــهُ مكانه و يقولُ لأصحابِهِ مفتخراً : هذا خالي ، فلْـــيُرني امرؤٌ خالَهُ ....!!

كما أنه الفارسُ الذي كان له سلاحان : دعاؤه و رمحُـــهُ حتى لقدِ اشتَهرَ بين جميعِ المسلمين أنه إذا دعا اللهَ عــز وجل بدعاءٍ أجابَهُ ، و إذا ضرب فـــي الحــربِ عــدواً أصابه ، و ذلك بفضلِ دعاءِ رسول الله صلى الله عليـــه وسلم له بقولِهِ : اللهم سَدِّدْ رميتَهُ ، و أجبْ دعوتَه .

علم الفرسُ عن سعدٍ رضي الله عنه كـــلَّ هــذه المعلوماتِ ، و أخذوا عنه ترجمةً وافيةً و كاملةً جعلتهم يحيطون بتفاصيل حياتِهِ و أحوالِهِ و عاداتِـــهِ فـــأجمعوا أمرَهم أن يولّوا قائداً قوياً ، و فارساً عنيداً يكون جديــراً لهذه المهمةِ الصعبةِ و الشاقةِ ، و أهلاً لتحملِ أعبائِها

وأثقالِها للتصدي للقائدِ سعدٍ و ردعِهِ ، و من ثمَّ طـــردِهِ من أرضِ العراقِ .

فاجتمعوا لهذا الأمرِ ، و اتفقوا على توليةِ رســتم و الفيرزان لهذه المهمـــة . فتذامــروا فيمــا بينـــهم ، وتواصَوا على ضرورةِ تنفيذِها لسلامةِ فـــارس إعـــادةً لكرامتِهِم ، و حفظاً لماءِ وجوهِهِم أمام الامبراطوريـــة الرومانيةِ الكبرى التي تنافسُهم على السيطرةِ و الزعامةِ في الأرضِ العربيةِ .

فقالوا لرستم و الفيرزانِ : لئن لم تقوما بـــالحربِ كما يجبُ ، و تطردا العربَ المســـلمين مـــن أرضِنـــا لنقتلنكما ، و نشتفي بكما .

كما أنهم رأوا أن مصلحةَ فارس تقتضي تغيـــيراً جذرياً في القيادةِ السياسيةِ مرةً أخرى ، فيجـــبُ عـــزل الملكةِ التي توّجوها مرتين ، و تنحيتها عـــنِ الحكـــمِ ، وتوليةُ رجلٍ قويٍ يكونُ أهلاً للملكِ ، وجديراً بتحمـــلِ

أعباءِ الحكمِ و سياسةِ الدولةِ ، متصفاً بالحزمِ و القـــوةِ والصرامةِ أمام الظروفِ القاسيةِ و الحرجةِ التي تمرُّ بها الدولةُ الفارسيةُ .

(اجتماعُ الفرسِ على تتويجِ)
(يزدجردَ)

قبل أن نذكر مَنْ سيولّيه الفرسُ ملكاً عليهم لا بدَّ أن نرجعَ قليلاً إلى الوراءِ لنضربَ في أغوارِ الماضي السحيقِ ، لنعرفَ ما جرى في القصرِ الأبيضِ بالمدائنِ قبل إحدى و عشرين سنةً .

و ذلك يوم جمع شيرين آلَ كسرى في القصرِ الأبيضِ ، و أمر بقتلِ جميعِ ذكرانِهم و كانت أمُّ يزدجردَ بينهم و معها ابنُها و هو صغيرٌ ، فلما أحسَّتْ بالخطرِ عليه خافَتْ عليه القتلَ فواعَدَتْ إخوتَها ، فقدموا عليها سراً ، و بكل حذرٍ و دقةٍ و حيطةٍ أخذوا الغلامَ و ذهبوا به بعيداً حيث لا يعلمُ بمكانِهِ أحدٌ ، و لا تصلُ إليه عيونُ شيرينَ و رجالُهُ .

و مرَّتِ الأيامُ ، و توالـــتِ السـنون ، و قـــامَتِ الحروبُ بينهم و بين الجيوشِ الإسلاميةِ القادمةِ إليهم من الصحراءِ ، فأذاقتهم مُرَّ الهزائمِ ، و نكَّسَتْ راياتِــهِم ، وقتلَتْ خيرةَ فرسانِهِم ، و فتَحَتْ معظمَ بلادِهم ، وألحقَتْ بهم خسائرَ جسيمةً في الرجال و الأمـــوالِ و البـــلادِ ، وقضَتْ على غطرستِهِم و كبريائِهِم و جعلتـــهم و لأولِ مرةٍ يشعرون بالضعفِ ، و مرارةِ الذلِ ، و خيبةِ الأمل.

فلما استفحل الخطر الإســلاميُّ فــي بلادِهـم ، ولمسوا ما حَلَّ بهم يوم معركةِ البويبِ و قتْلِ من قُتِــلَ من فرسانِهم و أمرائِهِم ، اجتمعوا لقتـــالِ المســلمين ، وأمَّروا رستمَ و الفيرزانَ كما مَرَّ ، و خلعوا بــورانَ ، وأخذوا يبحثون عن رجلٍ حازمٍ و قويٍ يجعلونه ملكاً ، ولا بدَّ أن يكونَ ذلك الرجلُ من سلالةِ كسرى و أحفـادِهِ فرأوا أن يبعثوا خلف نساءِ كسرى في كل فجٍ ، و فـــي كلِ مكانٍ .

فجعلوا إذا جاءَتهمُ المرأةُ سألوها : هل لها ولدٌ ، فتنكرُ عليهم ذلك خوفاً على ولدِها من القتلِ .

فأحضروها و معها ولدُها يزدجردُ ، و كان قد بلغ مـــن العمرِ إحدى و عشرين سنةً ، و هو من ولدِ شهريارُ بنِ كسرى فتوجوه ملكاً .

هذا ... و قدِ استوثَقَتْ له الممالكُ ، و اجتمَعَتْ عليه فارس ، و أيدوه و فرحوا به ، و قاموا بين يديـــه أتمَّ قيامٍ حتى استفحل أمرُه فيهم ، و قويَتْ به شوكتُهم ، و بعثوا إلى الأقاليمِ و المناطقِ و المدنِ في جميعِ فارس فخلعوا طاعةَ المسلمين ، و نقضوا العهودَ و المواثيقَ ، و خفروا الذممَ ، و تمردوا على المسلمين ، و امتنعـــوا من أداءِ الجزيةِ ، و هم يعتقدون أن أمرُهم قدِ اســـتقامَ ، وأنهم قادرون على مقاومة المسلمين و طردهـــم متـــى أرادوا ، و هم لا يعلمون أنهم قـــادمون إلـــى المـــوتِ باختيارِهِم ، و مقبلون علـــى حتفِـــهِم بإرادتِـــهِم ، و أن اجتماعَهم على يزدجردَ يعني نهايتَهُ و نهايتَهم .

ذلك أن يزدجردَ هذا كـــان طائشـــاً متـــهوراً ، وطاغيةً غاشماً ، و أحمقَ ظالماً ، و باغياً في الأرضِ،

و صلفاً مغروراً ، و متغطرساً جباراً ، و تلك صفات يجبُ أن لا تجتمعَ في حاكمٍ أو ملكٍ أو مسؤولٍ ، لأنها في النهايةِ سوف تؤدي بصاحبها إلى الهلاكِ و الموتِ المحققِ .

ذلك أن القوةَ إذا لم توجهها الحكمةُ القويةُ ، والإرادةُ الصحيحةُ ، و العقلُ السديدُ كانَتْ تهوراً وطيشاً، و أوردَتْ صاحبَها في النهايةِ موردَ الهلاكِ والعطب ، و في ذلك يقولُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : **(ليس الشديدُ بالصُرعةِ ، إنما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضب)** (١)

لقد زيَّن الشيطانُ للفرسِ أعمالَهم ، و قادَهم إلى حتفِهِم ، وورطهم في حربٍ غيرِ متكافئةٍ ، و عمّا قريبٍ سوف يتخلّى عنهم ، و يتركُهم عرضةً لسيوفِ المسلمين تتسلطُ على رقابِهم ، و تذيقُهم ألَمَ القتلِ ، و مرارةَ الهزيمةِ ، وذُلَّ الخيبةِ و التشردِ ، و تمزقُهم شرَّ ممزقٍ

(١)متفق عليه .

لقوله تعالى :

(كمثلِ الشيطانِ إذ قال للإنسانِ اكفرْ فلمّا كفر قال إنـــي بريءٌ منك إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين . فكان عاقبتَهما أنهما في النارِ خالدَيْنِ فيها و ذلك جزاءُ الظالمين) [١]

صدق الله العظيم .

و في ذلك يقولُ الحقُّ تبارك و تعالى و هو ينهى عبادَه المؤمنين أن يصابوا بمرضِ الكبرِ و الغرورِ ، أو يسمعوا لداعي الشرِ ، أو يستجيبوا لنـــوازعِ الشيطـــانِ **(و لا تكونوا كالذين خرجوا من ديارِهِم بطراً و رئـــاءَ الناسِ و يصدون عن ســـبيلِ الله و اللهُ بمـــا يعملـــون محيطٌ. و إذ زيَّنَ لهمْ الشيطانُ أعمالَهم و قال لا غالبَ لكمْ اليومَ من الناسِ و إني جارٌ لكم فلما تراءَتِ الفئتانِ**

---

(١)الآيتان ١٦-١٧ من سورة الحشر

نكَصَ على عقبيهِ و قال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا تَرَون إني أخافُ اللهَ و اللهُ شديدُ العقابِ) [1]

هذا هو حالُ الفرسِ ، و ما أصيبوا به من غطرسةٍ وكبرياءَ ، و غرورٍ و صلفٍ . أمّا حالُ المسلمين فقد كان على عكسِ ذلك تماماً .

إنهم يلتزمون أوامرَ اللهِ تعالى ، و لا يخرجون عن طاعتِهِ ، و لا يشركون به شيئاً ، يتعاونون على البر و التقوى ، و لا يتعاونون على الفحشاءِ و المنكرِ ، يأمرون بالمعروفِ و يحبون الخيرَ لجميعِ الناسِ ، ويطبقون قولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم :

(لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُ لنفسِهِ) [2]

---

(١)الآيتان ٤٧–٤٨من سورة الأنفال (٢) رواه مسلم

(مَثَلُ المؤمنين في توادّهم و تعاطفِهم و تراحمِهم كمثلِ الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ و الحمى) [1]

و هذا هو السرُ في نجاحِهم و فلاحِهم و نصرِهم و تأييدِ اللهِ تعالى لهم . و هم الذين سمعوا بأن الفرسَ قد جمعوا لهم ، و اجتمعوا حولَ يزدجردَ و توجوه ملكاً ، و خلعوا طاعةَ المسلمين ، و نقضوا عهودَهم و مواثيقَهم ، لم يجزعوا ، و لم تضعفْ همتُهم ، و لم تهِنْ عزيمتُهم ، فأرسلوا إلى أمير المؤمنين عمرَ رضي اللهُ عنه يخبرونه الخبرَ ، و يستشيرونه بالأمرِ .

فكتب إليهم عمرُ رضي اللهُ عنه يأمُرُهم بالخروجِ من أرضِ الفرسِ و ليكونوا على أطرافِ البلادِ ،

---

(١) متفق عليه .

ولِيْختاروا أماكنَ تواجدِ المياهِ على الأنـــهارِ و العيــونِ وغيرِها ، و أن تكونَ كلٌّ قبيلةٍ قريبةً مِنَ الأخرى بحيثُ تراها و تنظرُ إليها ، حتى إذا ما حَدَثَ حَدَثٌ ، و حصل أمرٌ على قبيلةٍ لا يخفى أمرُها على الأخـــرى ، فتــهبُّ لنجدتِها و نصرتِها .

و قد نفَّذَ المسلمون أمرَ عمرَ رضي الله عنه الذي أهمَّهُ أمرُ المسلمين في العراقِ ، علـــى أثــرِ اجتمـــاعِ الفرسِ ، و نقضِهِمُ العهودَ و المواثيقَ ، و تجهيزِ جيشٍ كبيرٍ لقتالِ المسلمين .

خاتمة في نسبِ أبي عبيد
أميرِ المسلمين في يوم الجسر

هو أبو عُبَيْدٍ بنِ مسعودٍ الثقفيُّ .

أسلم في حياةِ النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجتمعْ به ، فلهذا لم يُذكرْ في الصحابةِ ، و ذكره ابنُ الأثيرِ في أُسدِ الغابةِ ، و ذكره ابنُ العمادِ في شذراتِ الذهب وقـــال : كان له صحبةٌ . و تقدم أن عمر رضي الله عنه بعثه في جيشٍ كثيفٍ إلى العراقِ لقتالِ الفرسِ سنةَ ثلاثَ عشرةَ ، فقُتِلَ شهيداً ، و قتل معه يومئذٍ أربعةُ آلافٍ من المسلمين كما تقدم ، رضي الله عنه وعنهم أجمعين .

و قد عرف ذلك الجسرُ الذي دارَتْ رحا المعركةِ عنده بجسر أبي عبيد لاستشهادِهِ عنده ، وهو جسرٌ على الفراتِ ، و قيل على دجلةَ و الله أعلم .

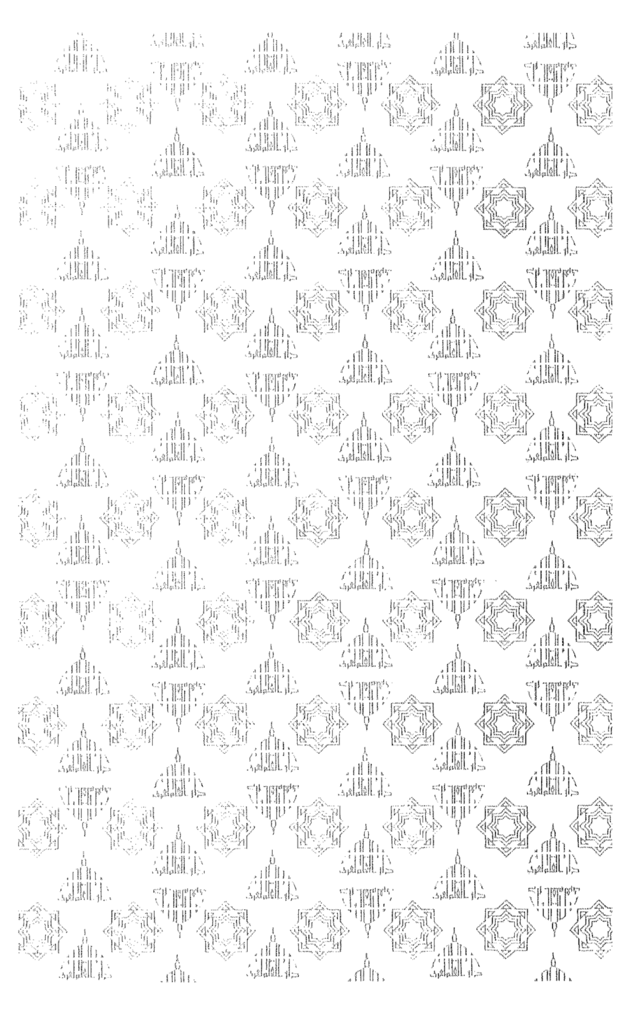
فرضي الله عنه وعن جميع شهداء المسلمين فـــي معركة يوم الجسر وغيرها إلى يـــوم الديـــن ، وقبـــل

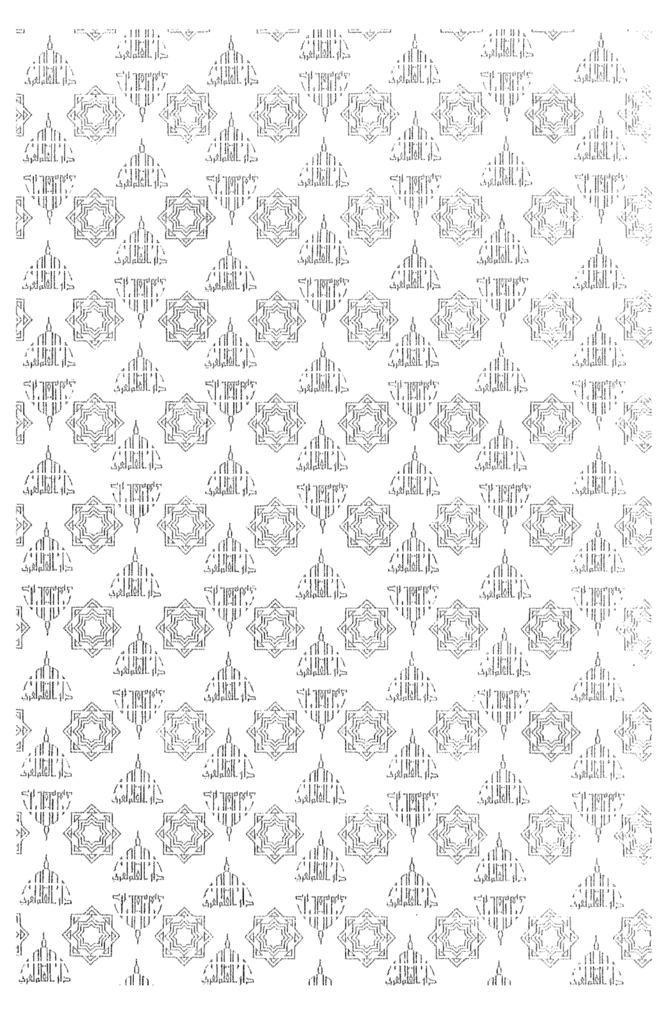
عملهم، وشكر سعيهم، وأسكنهم فسيحَ جناتِهِ مع الذيـــــن أنعم اللهُ عليـــهم مـــن النبيـــن والصديقيـــن والشـــهداءِ والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً .

تمتِ الرسالةُ و الحمد لله ربِ العالمين

و إلى اللقاء مع معركةٍ خالدةٍ أخرى

الفهــــرس




دار القلم العربي

معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

١ ـ معركة ذي قـار
٢ ـ معركة بـدر
٣ ـ معركة أحـد
٤ ـ معركة الخندق
٥ ـ معركة حنين
٦ ـ معركة اليمامة
٧ ـ معركة اليرموك
٨ ـ معركة الجسر
٩ ـ معركة القادسية
١٠ ـ معركة فتح المدائن
١١ ـ معركة نهاوند
١٢ ـ معركة فتح الأندلس
١٣ ـ معركة بلاط الشهداء
١٤ ـ معركة وادي الحجارة
١٥ ـ معركة العمورية
١٦ ـ معركة الزلاقة
١٧ ـ معركة حطين
١٨ ـ معركة بيت المقدس
١٩ ـ معركة عكا
٢٠ ـ معركة عين جالوت

لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها ، وإنما كانت لردِّ العدوان ، ولدر الأخطار ، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دو وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجود غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب ـ إذ تنشر هذه الكتب ـ إنما تسعى نفوس الأبناء حب التضحية والفداء ، وحبّ آبائهم الذين بذلوا دماء شامخة لايدنسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر



I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

